ذاكرة العرب

دورية علمية مُحكّمة - العدد السادس - ٢٠٢٢

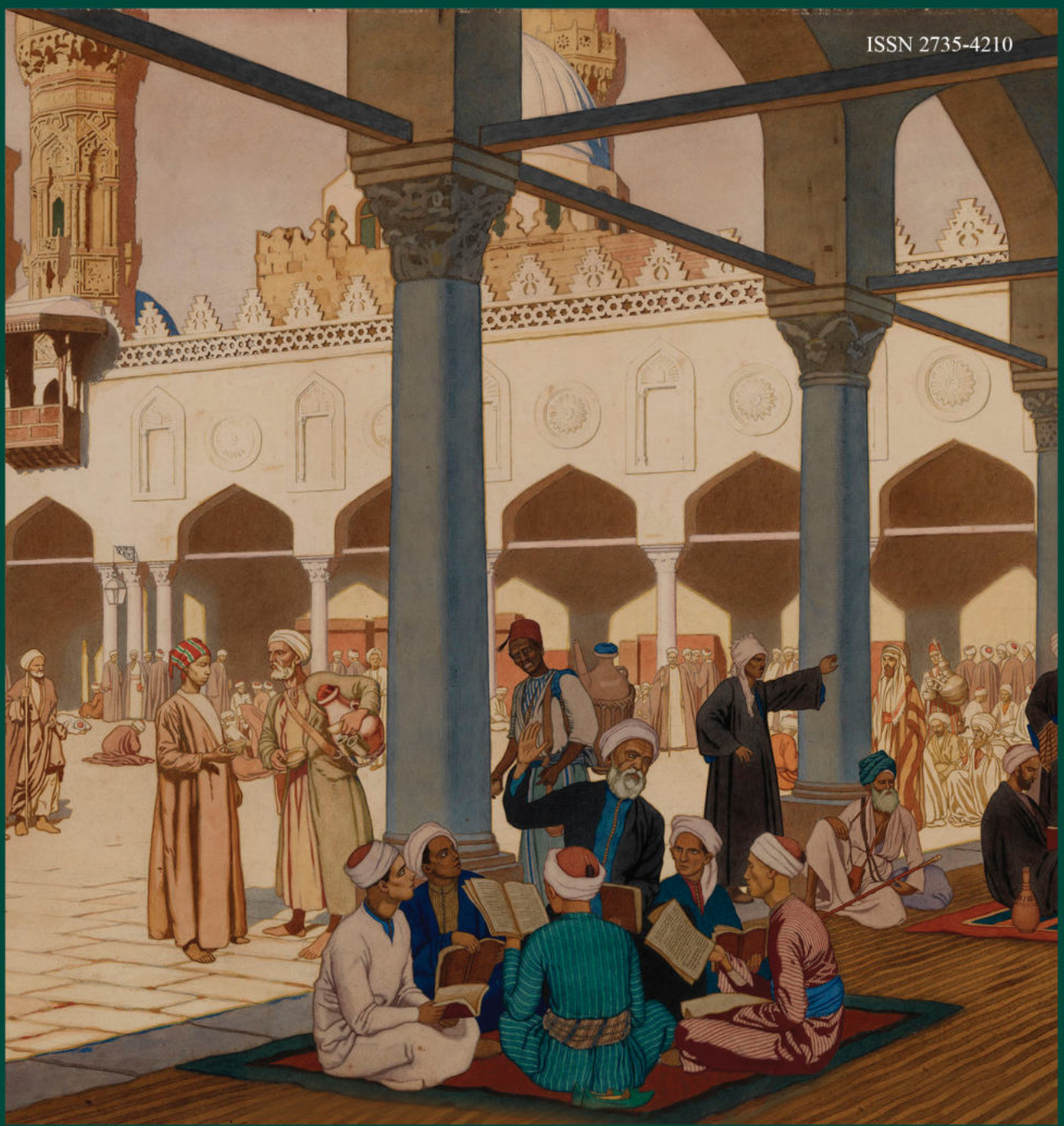

ISSN 2735-4210

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

دورية علمية مُحكّمة

مركز دراسات الحضارة الإسلامية
Center for Islamic Civilization Studies

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة- أثناء - النشر (فان)

ذاكرة العرب. ع6 (2022) - . الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، قطاع البحث الأكاديمي، مشروع ذاكرة العرب، 2023.

مجلدات ؛ سم.

ربع سنوي

ردمد 2735-4210

1. العرب-- تاريخ-- دوريات. 2. الثقافة العربية-- دوريات. 3. الحضارة العربية -- تاريخ -- دوريات. 4. الدول العربية-- تاريخ-- العصر الإسلامي-- دوريات. 5. الدول العربية -- تاريخ-- دوريات. أ- مكتبة الإسكندرية. قطاع البحث الأكاديمي. مشروع ذاكرة العرب.

ديوي 909.04927 2020424354276

ISSN 2735-4210

© مكتبة الإسكندرية، ٢٠٢٣.

الاستغلال التجاري

يحظر إنتاج نسخ متعددة من المواد الواردة في هذه الدورية، كلها أو جزء منها، بغرض التوزيع أو الاستغلال التجاري، إلا بموجب إذن كتابي من مكتبة الإسكندرية. وللحصول على إذن لإعادة إنتاج المواد الواردة في هذه الدورية، يُرجى الاتصال بمكتبة الإسكندرية، ص.ب. ١٣٨، الشاطبي ٢١٥٢٦، الإسكندرية، مصر.

البريد الإلكتروني: secretariat@bibalex.org

طُبِع بمصر
١٠٠٠ نسخة

الإشراف العام

أ. د. أحْمَد عَبْد الله زَايِد
مدير مكتبة الإسكندرية

رئيس قطاع البحث الأكاديمي

د. مَرْوَة الوَكِيل

رئيس التحرير

د. مُحَمَّد الجَمَل

هيئة التحرير

د. شِيرِين القَبَّاني

د. رَضْوَى زَكِي

المراجعة اللغوية

د. مُحَمَّد حَسَن

دِينَا عِيسَوِي

مراجعة التنسيق

مَرْوَة عَادِل

معالجة النصوص

سَمَاح الحَدَّاد

التصميم الجرافيكي

مُحَمَّد شَعْرَاوِي

الإسكندرية، ٢٠٢٢

مجلة ذاكرة العرب دورية علمية مُحكّمة تهتم بالتراث الثقافي والتاريخي والحضاري للبلدان العربية والإسلامية، وتهدف إلى التأكيد على أهمية استعادة الذاكرة العربية للحاضر العربي الراهن، وتصدر عن مشروع «ذاكرة العرب» بقطاع البحث الأكاديمي بمكتبة الإسكندرية.

الهيئة الاستشارية

أ. د. أشرف فراج (مصر)

أ. د. ألبرشت فوس (ألمانيا)

أ. د. أيمن فؤاد سيد (مصر)

أ. د. حسام الدين شاشية (تونس)

أ. د. حسن محمد النابودة (الإمارات)

أ. د. حسين العمري (اليمن)

أ. د. خالد زيادة (لبنان)

أ. د. خوسيه ميجل بوريتا (إسبانيا)

أ. د. ديفيد نيكول (إنجلترا)

أ. د. سليمان الذييب (السعودية)

أ. د. صلاح جرار (الأردن)

أ. د. عبد الرحمن السالمي (عمان)

أ. د. عبد القادر بوباية (الجزائر)

أ. د. عبد الواحد ذنون طه (العراق)

أ. د. محمد أبطوي (المغرب)

أ. د. محمد الأمين ولد آن (موريتانيا)

أ. د. مصطفى موالدي (سورية)

أ. د. نيقولا ميشيل (فرنسا)

قواعد النشر

- ترحب المجلة بنشر البحوث الجديدة في كافة مجالات دراسات التراث الثقافي والتاريخي والحضاري للبلدان العربية والإسلامية.
- يجب أن يتسم البحث بالأصالة والابتكار والمنهجية، وأن يكون البحث جديدًا ولم يُنشر من قبل بأي صورة من صور النشر، وغير مستلٍّ من كتاب أو رسالة جامعية (ماجستير، دكتوراه).
- يتراوح عدد كلمات البحث بين ٦٠٠٠ و٨٠٠٠ كلمة.
- يُستخدَم خط Traditional Arabic للبحوث باللغة العربية بحجم ١٦ للمتن، و١٤ للهوامش، ومسافة واحدة بين السطور.
- يُستخدَم خط Times New Roman للبحوث باللغة الإنجليزية بحجم ١٤ للمتن، و١٢ للهوامش، ومسافة واحدة بين السطور.
- توضع الهوامش والإحالات في نهاية البحث إلكترونيًّا، ويكون تسلسل أرقام الهوامش متتاليًا متسلسلًا في البحث.
- يرفق قائمة بالمصادر والمراجع في نهاية البحث.
- يراعى اتباع منهجية النشر وقواعد كتابة المصادر والمراجع المتبعة في مكتبة الإسكندرية، ويلتزم الباحث بإجراء أي تعديلات ببليوغرافية حال طلبها.
- يرسل الباحث السيرة الذاتية مختصرة، ومزودة ببطاقة الهوية وبيانات اتصال كاملة.
- تحكيم الأبحاث سري ومعد على نموذج يخضع للمعايير العلمية الأكاديمية، وقرار إجازة البحث للنشر أو رفضه هو قرار نهائي. في حال الإجازة مع التعديل، يلتزم الباحث بإجراء التعديلات المطلوبة وفق المدة المحددة.

التواصل وإرسال الأبحاث عبر البريد الإلكتروني للمجلة:

arabmemory.journal@bibalex.org

الفهرس

تقديم ٧

مساهمة مصر في ازدهار الحركة العلمية بالأندلس من خلال كتاب «عيون الإمامة ونواظر السياسة» لأبي طالب المرواني ٩

أ. د. عبد القادر بوباية

القاهرة المستنصرية من خلال وصف ناصر خسرو في «سفر نامة» (٤٣٩-٤٤٢هـ/ ١٠٤٧-١٠٥٠م) ٢٥

أ. د. حسن عبد الوهاب سليم

العَلاقات الدبلوماسية بين سلاطين دهلي والخلافة العباسية في بغداد والقاهرة: دراسة تاريخية في ضوء المصادر المصرية والهندية ٤١

د. صاحب عالم الأعظمي الندوي

صورة القاهرة في عيون أندلسية: قراءة في كتاب «النجوم الزاهرة في حُلَى حضرة القاهرة» ٧٣

د. شيماء فرغلي

علم الأنساب والدلالات الحضارية من مؤلفات القَلَقَشَنْدي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٩م) ٩٥

أ. د. عثماني أم الخير

مظاهر الأرستقراطية لحي الأزبكية في عصر دولة المماليك الجراكسة ١١٧

د. إيمان صلاح عطاطة

الآيات القرآنية على مسكوكات الخلافة الفاطمية والدول التابعة لها ١٤١

د. فرج الله أحمد يوسف

مدرسة المنصور قلاوون، عن أدريان دوزاتس.

تقديم

لقد خطَت مكتبة الإسكندرية خطوات واسعة نحو أداء أدوارها الثقافية والعلمية المتعددة على كافة المستويات المحلية والعربية والدولية، وذلك بعقد الندوات والمؤتمرات الدولية ونشر البحوث والمؤلفات العلمية الرصينة من خلال مراكزها العلمية المتعددة في مجالات العلوم والفنون والآداب.

وفي هذا السياق، تُصدر المكتبة العدد السادس من مجلة «ذاكرة العرب» التابعة لمشروع «ذاكرة العرب» بقطاع البحث الأكاديمي بالمكتبة، وهي دورية علمية مُحكّمة تهتم بالتراث الثقافي والحضاري للبلدان العربية، وتصدرها المكتبة منذ عام ٢٠١٨ بهدف التأكيد على أهمية استعادة الذاكرة العربية للحاضر العربي الراهن. وخُصص هذا العدد لموضوع «القاهرة ملتقى الثقافات والحضارات منذ نشأتها إلى نهاية العصر المملوكي» وذلك بمناسبة اختيار منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) للقاهرة عاصمةً للثقافة الإسلامية لعام ٢٠٢٢، ليعبِّر ذلك عن جانب من الأحداث والفعاليات الثقافية التي تُنظّمها مكتبة الإسكندرية، وتتيحها للباحثين والمهتمين من خلال دراسات ودوريات علمية مُحكّمة منشورة.

وقد ضم هذا العدد بعض البحوث المقدَّمة وفقًا للمحاور التي تضمنها الإعلان عن النشر العلمي في هذا العدد، مثل: مساهمة مصر في ازدهار الحركة العلمية بالأندلس، والقاهرة المستنصرية من خلال وصف ناصر خسرو في كتابه سفرنامة، بالإضافة إلى العلاقات الدبلوماسية بين سلاطين دهلي والخلافة العباسيَّة في بغداد والقاهرة من خلال المصادر المصريَّة والهنديَّة، وصورة القاهرة في عيون أندلسية، وعلم الأنساب والدّلالات الحضاريّة من مؤلّفات القَلَقَشَنْدي، ومظاهر الأرستقراطية لحي الأزبكية في عصر دولة المماليك الجراكسة والآيات القرآنية على مسكوكات الخلافة الفاطمية والدول التابعة لها.

أ. د. أحمد عبد الله زايد
مدير مكتبة الإسكندرية

العَلاقات الدبلوماسية بين سلاطين دهلي والخلافة العباسية في بغداد والقاهرة: دراسة تاريخية في ضوء المصادر المصرية والهندية

د. صاحب عالم الأعظمي الندوي

باب زويلة، عن جورج يويل.

العَلاقات الدبلوماسية بين سلاطين دهلي والخلافة العباسية في بغداد والقاهرة: دراسة تاريخية في ضوء المصادر المصرية والهندية

د. صاحب عالم الأعظمي الندوي*

مقدمة

كانت السمة البارزة لسلاطين دهلي، اهتمامهم بتقوية العلاقات بالدول العربية والإسلامية، ولا سيما الخلافة العباسية، مع أنَّ ذلك كان في إطار الحصول على الشرعية الدينية والسياسية فحسب، بالإضافة إلى السعي وراء تحسين السياسة الخارجية. ويُعَدُّ السلطان إيلتتمش (المتوفى ٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م) أول مَن أقام علاقاتٍ دبلوماسية مع الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور المستنصر بالله بن الظاهر (المتوفى ٦٣٩هـ/ ١٢٤٢م)، وأمر بالدعاء له على المنابر في خُطب الجمعة والعيدين في دهلي؛ وعليه، أقرَّه الخليفة العباسيُّ سلطانًا على الهند، وأرسل إليه سِفارةً وورقةَ التفويض بالحُكم والخِلْعَة؛ وذلك في (٢٤ ربيع الأول ٦٢٦هـ/ الموافق ١٩ فبراير عام ١٢٢٩م). وبعد مرور مائة عام، تسلَّم السلطان محمد تغلق (المتوفى ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م) أيضًا ورقةَ التفويض بالحكم والخلعة التي أرسلها الخليفة العباسيُّ الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن المستكفي بالله (المتوفى ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م)، في مصر بواسطة مبعوثه «حاجي سعيد صرصري» في عام (٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م). وقد تُبودلت السِّفاراتُ والهدايا بين الطرفين زمنَ خليفته وابن عمه السلطان فيروز شاه تغلق (المتوفى ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م).

ويتضح مما جاء في الحوليات الفارسية لسلطنة دهلي، ولبعض الإمارات الإسلامية مثل إمارة مالوه في وسط الهند، أنَّ السلاطين الهنود إبّان تلك الحقبة كانوا يعتقدون اعتقادًا جازمًا بأنَّ سلطتهم السياسية والدينية ستكون غير شرعية ما لم يذعنوا للخلافة العباسية، وينالوا التفويض والتأييد من الخليفة العباسيِّ ولو شكليًّا، وحتى بعد سقوط الخلافة في بغداد وانتقالها إلى القاهرة. ويتضح من ذلك ترسُّخ مكانة الخلافة العباسيَّة في نفوس أولئك السلاطين الهنود، وسعيهم لكسْب وُدِّ الخلافة في القاهرة، فضلًا عن تقديرها لجهودهم بإرسال الهدايا

والألقاب إليهم. بيد أنَّ السؤال المطروح هنا هو: هل كانت جميع الإماراتِ الإسلاميَّة في شمال الهند وجنوبها تعتقد ذلك الاعتقاد، وحاولت الحصول على التفويض والشرعيَّة من الخلفاء العباسيين في القاهرة؟ علمًا بأنَّ بعض الإماراتِ الإسلاميَّة في گجرات وفي جنوب الهند أرسلت سفاراتٍ عديدة وفي الحقبة التاريخيَّة نفسها، إلى الدولة الرسوليَّة للحصول على الشرعيَّة والتفويض، وسكّت نُقودها بأسماء السلاطين الرسوليين، وكذلك كانت أسماؤهم تُذكر في خُطب الجمعة في تلك البلاد الساحلية.

إذن، فالإشكالياتُ التي يريد الباحث طرحَها ودراستها في هذه الورقة تتعلق بجوانب عديدة، ومنها على سبيل المثال: لماذا كان سلاطين دهلي بحاجة إلى الحصول على الشرعيَّة من الخلافة العباسيَّة التي لم تكن تتبوأ حينذاك أيَّ سلطة سياسيَّة ودينيَّة حقيقيَّة ولا سيما بعد انتقالها إلى القاهرة، في حين بلغَت سلطنة دهلي أَوْجَ قوتها وازدهارها إبّان تلك الفترة؟ هل كان للعلماء العرب الوافدين إلى دهلي لا سيما زمن السلطان محمد بن تغلق دورٌ في ترسيخ تلك الأفكار المذكورة آنفًا؟ أمْ كان الهدف لديهم من مدّ جسور الصلة بالخلافة دعمَ مكانتهم الدينيَّة والسياسيَّة وتقويتهما في الهند، مُجارينَ في ذلك سلاطين مالوه وبنگالة والإمارة البهمنيَّة في جنوب الهند؟ ثم، لماذا لم يحاولوا تقوية صلاتهم السياسيَّة والدبلوماسيَّة بالدولة الرسوليَّة مثلما فعلت بعض الإماراتِ الهنديَّة الجنوبيَّة والغربيَّة، لجني المكاسب الاقتصاديَّة والتجاريَّة؟ وكيف كان موقف الدولة الرسوليَّة من سلاطين دهلي، ومن تلك الإماراتِ الهنديَّة الأخرى التي سعَت إلى تقوية الصلاتِ السياسيَّة والدبلوماسيَّة والتجاريَّة بمصر آنذاك؟ هذا، وستتضمن الورقة البحث في نقاط عديدة، ومنها:

- طبيعة العَلاقاتِ المصريَّة الهنديَّة في العصور القديمة والإسلاميَّة.
- مفهوم العَلاقاتِ الدبلوماسيَّة والدينيَّة بين الخلافة العباسيَّة والسلاطين الشرقيين.
- ماهية العَلاقاتِ الدبلوماسيَّة بين سلاطين دهلي والخلافة العباسيَّة في بغداد والقاهرة:
  - عَلاقة السلطان قطب الدين أيبك وخلفائه بالخلفاء العباسيين في بغداد.
  - عَلاقة الأسرة الخلجيَّة بالخلفاء العباسيين بعد سقوط بغداد.
  - عَلاقة الأسرة التغلقيَّة بالخلفاء العباسيين في القاهرة.

طبيعة العَلاقاتِ المصريَّة الهنديَّة في العصور القديمة والإسلاميَّة

لما كانت فلسفة التسامح والتعايش بين جميع الأديان والأعراق جوهرَ حضارة الهند وثقافتها، وكانت التجارة الدوليَّة البريَّة والبحريَّة من أهمِّ مقوماتِ اقتصادها، فلم يكن من صالح الهند أنْ تتقوقع على نفسها وتعيش في عزلة، وانطلاقًا من تلك الرؤية، فقد أبقَت الهند أبوابها مفتوحة على مصراعيها أمام الوافدين والثقافات الوافدة من جميع أنحاء العالم. ومن ثَمَّ، ظلّت عبر العصور بوتقةً تنصهر فيها ثقافات العالم وحضاراته. وكان التفاعل المكثّف بين الهند والبلدان المطلة على المحيط الهنديِّ ديناميكيًّا ومتنوعًا ومتعددَ الأبعاد. وكان تأثير هذا التفاعل واضحًا جدًّا ودائمًا في مجال الاقتصاد والتجارة والفكر والثقافة. وتتحدث تلك الصِّلاتُ المتبادلة التي يمكن تأريخها إلى العصور القديمة عن مثل تلك الحواراتِ بين الثقافاتِ، والعَلاقاتِ المتبادلة بين الحضاراتِ القديمة في السِّند والعراق ومصر في المقام الأول. وثَمَّ الكثيرُ من الأدلة التاريخية لإثبات وجود الصلاتِ القوية بينها، فكان لشعوب منطقة المحيط -بما فيها مصر- علاقة تجاريَّة وثقافيَّة بالهند في فترة ما قبل الإسلام. ففي العصور التاريخيَّة القديمة، كان التجار الهنود والمصريون ينقلون سفنهم عبر البحار، وبذلك أقاموا روابطَ تِجاريَّة وسياسيَّة بعضُهم مع بعضٍ[1]. ونتيجةً لذلك، أنشأ أولئك التجار الهنود والمصريون مستوطناتهم الدائمة على المناطق السواحليَّة للهند ولمصر، والتي أدت دورًا كبيرًا ومُهِمًّا في تبادل العَلاقاتِ التِّجاريَّة والثقافيَّة بين الطرفين[2]. وكانت البضائع الهنديَّة، وتلك التي تُجلب من مناطق جنوب آسيا تُنقل إلى اليمن، وإلى المناطق المصريَّة الساحليَّة ومنها إلى الدول الأوروبيَّة[3].

وقد وردت أخبار عن العَلاقاتِ المصريَّة والهنديَّة القديمة في عدد من الكتب السماويَّة، وذُكرت فيها أيضًا أسماء أهمِّ السلع والبضائع، وأبرزها التي كانت تُجلب من الهند إلى مصر منذ ألفيْ سنة قبل الميلاد[4]. ووَفْقًا لبعض الباحثين، فإنَّ التجار الهنود كانوا يترددون على مصر على عهد سيدنا يوسف عليه السلام، وكانوا يحملون معهم الأقمشة القطنية والبهارات والأعشاب الهنديَّة لبيعها في مصر الفرعونيَّة[5]. وقد ظلَّ العرب والمصريون مسيطرينَ على التجارة مع الهند في تلك الحِقَبِ التاريخيَّة القديمة والإسلاميَّة حتى زمن الاستعمار البرتغاليِّ[6]. فقد اقتصر النشاط التِّجاريُّ في المحيط الهنديِّ خلال العصور الإسلاميَّة على الدول المطلة على المحيط والبحر الأحمر، فلم تشارك دولة خارج نطاقه في

(لوحة ١) خريطة للدول العربية والإسلامية وطرق التجارة في القرن الثامن الهجري.

(لوحة ٢) خريطة للهند في عصر سلطنة دهلي.

النشاط التجاريّ به سوى مصر، لدورها المؤثّر في حركة التجارة العالميّة، إلى جانب موقعها الحاكم، حيث انتشر تجارها على صفحة مياهه، كما أقاموا في موانيه المختلفة[٧]. وحينما تمكّن اليونانيون والرومان من السيطرة على التجارة العالميَّة في القرن الثالث قبل الميلاد، كانت السفن التجاريَّة تنقل البضائع من المناطق الهنديَّة الساحليَّة عبر اليمن، ومنها إلى المناطق الساحليَّة المصريَّة، ومنها إلى اليونان والرومان[٨].

وقد تنوَّعت المواد التجاريَّة المتبادلة بين الطرفين وَفْقًا لاحتياجات كلِّ بلد لها، وإنْ كانت الهند تستورد من مصر المصنوعات الفخاريَّة والأواني الحجريَّة، وبعض أنواع المنسوجات المصنوعة في الإسكندرية، فكانت مصر أيضًا تستورد من الهند البهارات والتوابل وأنواعًا معينة من الأقمشة القطنيَّة بالغة الرقة التي يستعملها الملوك الفراعنة والأثرياء في لفِّ موتاهم عند التحنيط[٩]. كما كانوا يستوردون من الهند أصنافًا مختلفة من التوابل والبخور والعطور والأحجار الكريمة والذهب والفضة والمعادن والأخشاب والعاج والمنسوجات إلخ من منطقة السند والمناطق الساحليَّة في جنوب الهند وسيلان[١٠].

ويتضح مما سبق، أنَّ البلدين كانا يتمتعان بالعلاقات التجاريَّة المتبادلة في العصور القديمة والإسلاميَّة، مما أحدَث تأثيرًا وتأثُّرًا في الأفكار والمعتقدات، وما كان يمكن للطرفيْنِ أنْ يمارسا ذلك الحجم التجاري الكبير دون وجود العلاقاتِ السياسيَّة والدبلوماسيَّة. ووَفْقًا لبعض الباحثين، فإنَّ العلاقاتِ الدبلوماسيَّة بين ملوك الهند ومصر جرى توثيقها ولا سيما في عصر حكم البطالمة لمصر (٣٢٣-٣٠ ق.م)[١١]. وكذلك استقرَّت بعض الجالياتِ الهنديَّة في الإسكندريَّة في بداية القرن الأول للميلاد[١٢].

والسؤال الذي يُطرح هنا: متى بدأت العَلاقاتُ السياسيَّة والدبلوماسيَّة بين مصر والهند في العصور الإسلاميَّة؟ لعلَّ أول اتصال سياسيٍّ ودبلوماسيٍّ أو دَعَويٍّ بدأ في العصر الفاطميّ، فالخليفة الفاطميُّ المعزّ لدين الله (المتوفى ٣٧٤هـ/ ٩٨٥م) كرّس نفسَه لنشر الدعوة الإسماعيليَّة خارج حدود أراضي الفاطميين، لا سيما بعد تحويل مقرّ الدولة الفاطميَّة إلى مصر سنة (٣٦٢هـ/ ٩٧٣م)، وأرسل الدعاةَ إلى منطقة السند، وظلَّ يتابع نشاطاتهم الدعوية عبر الرسائل والخطاباتِ. وقد عُثر على بعض تلك الرسائل، ومنها تلك التي بعثَ بها الخليفةُ الفاطمي في عام (٣٥٤هـ/ ٩٦٥م) إلى الداعي جلم بن شيبان[١٣]. إلا أنَّ الدعوة الإسماعيليَّة كانت قد وصلت في وقت سابق إلى تلك المناطق الهنديَّة عن طريق الدُّعاة اليمنيين، ففي العام (٢٧٠هـ/ ٨٨٣م) بعث ابنُ حوشب في اليمن بأحد أقاربه، واسمه هيثم، داعيةً إلى السند، مبتدئًا الدعوةَ في الهند. وتبعه دعاة كثيرون وبدءوا يمهّدون الأرض والطريق للثورة الباطنيَّة، حتى تيسّرَ للخليفة الفاطميِّ في مصر أنْ يبعثَ بجلم بن شيبان من القاهرة على رأس جُند هاجمَ السِّندَ وقتلَ حاكمَه، ثم تقدَّم إلى الملتان، وهزمَ الأميرَ العربيَّ من بني سامة عليها، ودخلها في عام (٣٥٤هـ/ ٩٦٤م) وسيطر عليها، وأجرى العملة والخُطبة باسم الخليفة الفاطميِّ في مصر، وبدأ ينشر مذهب الطائفة الإسماعيليَّة، وخَلَفَه ابنُه الشيخ حامد في حكم الملتان، وظلَّ يحكمها حتى عام (٣٨٧هـ/ ٩٩٦م)[١٤].

ويتضح من مقالات المؤرخ المصريِّ المقريزيِّ، أنَّ العلاقاتِ التجاريَّة والدبلوماسيَّة ظلت قائمةً في عصر الدولة الأيوبيَّة، فقد كانت التحف والهدايا تصل مِن ملوك الهند إلى القاهرة على عهد الملك الكامل ناصر الدين الأيوبيّ (المتوفى ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م)[١٥]. ومع أنَّ المقريزي لم يذكُر اسمَ الملك الهنديِّ الذي أرسل سِفارة إلى بلاط الملك الكامل في عام (٦٢٩هـ/ ١٢٣١م)، إلا أنه كتب عن تجمُّع عدد كبير من رسُل ملوك البلدان الشرقيَّة والغربيَّة بما فيها رسول الهند، ورُسُل الإفرنج، ورسول صاحب شيراز، ورُسُل صاحب الأندلس وغيرها في يوم واحد، «ولم تجتمع هذه الرُّسُل عند ملكٍ في يوم واحد قَطُّ غيرِه»[١٦].

وفي أخبار سنة سبعٍ وثمانين وستمائة، كتب المقريزيُّ أنه كُتب إلى الأكابر ببلاد السِّند والهند صورة أمانٍ لمن اختار الحضور إلى ديار مصر وبلاد الشام، وسُيِّر مع التجار[١٧]. على ما كان يجري يومئذٍ بدافع التجارة المتبادلة، فقد كان التجار المقرَّبين إلى الملوك يؤدّون دَوْرَ سُفراء بين الطرفين في كثير من الأحيان. ولعلَّ من المناسب أنْ نشير هنا إلى أنَّ التُّجار الأكارم أو الكارمية أسهموا إسهامًا كبيرًا في تقوية العَلاقاتِ التجاريَّة بين الهند ومصر على عصر الدولة الأيوبيَّة والمملوكيَّة، فكانت تلك الفئة من التجار تحتكر تجارة التوابل الواردة إلى مصر من الهند عن طريق ثغور اليمن، وكان معظمهم في الأصل من أهل بلاد الكانم الإسلاميَّة، التي تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد بالسودان الغربيِّ، فنُسبوا إلى أصلهم الجغرافيِّ بعد تحريفه إلى الكارم، ثم أُطلق ذلك اللفظ على جميع مَن مارَس تلك التجارة بمصر[١٨].

ويتبيّن من المصادر المصريَّة واليمنيَّة وجود منافسة بين المماليك في مصر والرسوليين في اليمن في الحرص على توطيد العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع الإماراتِ الإسلاميَّة الهنديَّة الساحليَّة، وحاول كلُّ جانبٍ أنْ تُؤْثِرَهُ تلك الإمارات الهنديَّة على غيره، وتتعاملَ معه فحسب، ويكون ولاؤها خالصًا له، فكان لذاك الولاء أبعاد دينيَّة وسياسيَّة واقتصاديَّة، بحيث كان المسلمون في تلك الديار الهنديَّة يذكرون -وفقًا

للولاء- أسماء الملوك المصريين أو اليمنيين في خُطب الجمع والعيدينِ، ويرسلون هدايا غالية الثمن إليهم، مما كان له دور فعّال في تقوية الصلاتِ التجاريَّة والاقتصاديَّة بين الطرفين[١٩]. ويتضح من إحدى مقالات المقريزيِّ أنَّ صاحب سِيلان بدَّلَ ولاءه من اليمن إلى مصر، ووجّه سِفارته إلى مصر لإقامة عَلاقاتٍ مشتركة بينهما. ووصلت سفارة من سيلان إلى القاهرة عام (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) على عهد السلطان قلاوون عن طريق الخليج فالعراق فالشام، وقد اتخذوا هذه الطريق بناءً على أمر ملِكهم، كي لا يضطروا إلى المرور ببلاد اليمن. وقد ذكر المقريزيُّ أنَّ كتابه كان عبارة عن صحيفة ذهب عرْض ثلاثة أصابع في طول نصف ذراع، بداخلها شيءٌ أخضر يشبه الخوص، مكتوب فيه بقلم لم يوجد في القاهرة مَن يُحسِن قراءته، فسُئل الرسل عنه، فقالوا: إنه يتضمن السلام والمحبة، وأنه ترك صحبة صاحب اليمن، وتعلّق بمحبة السلطان، ويريد أنْ يتوجه إليه رسولًا، وذكر فيه أيضًا خيراتِ بلدهم من الجواهر والتحف والأعشاب إلخ[٢٠]. والواضح أنه لو كانت الإماراتُ الإسلاميَّة الهنديَّة الواقعة على السواحل للمحيط، حاولت الاحتفاظ بأواصر العلاقات الثنائيَّة بين الطرفين، لأدرك السلطان قلاوون بدوره أهمية تلك الصلات الدبلوماسيَّة والتجاريَّة، وسعى لتقويتهما.

ومما يدلُّ على وجود العلاقات الدبلوماسيَّة والتجاريَّة القويَّة بين الهند ومصر في العصور الإسلاميَّة، وكذلك على عظمة القاهرة ومكانتها باعتبارها سوقًا عالميًّا -ما يرويه الرحّالة طافور الذي زار مصرَ في النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلاديِّ، وكتب قائلًا: «إنَّ أحسن وأبهى وأروع شيء يراه المرء في القاهرة هو سوقها التي تُعرض للبيع فيها أكداس هائلة وكميات ضخمة من شتى البضائع الواردة من الهند... وليس في القدرة تَعداد جميع السلع التي يُؤتَى بها إلى هنا من الهند، ثم تُوزع في مختلف أنحاء العالم. وهنا السوق الرئيس لجميع تلك الأنواع التي وصفتها»[٢١].

وسجل طافور في مكان آخر مشاهدته لإحدى القوافل التجارية التي وصلت إلى القاهرة من بلاد الهند، وكانت تحمل جميع أنواع البهار واللآلي والأحجار الكريمة والذهب والعطور والحيوانات الغريبة. وكتب أنَّ التجار يذهبون بنصف تلك السلع التجارية إلى القاهرة حيث تُحمل منها إلى الإسكندرية، ويمضون بالنصف الآخر إلى دمشق، ومنها إلى ميناء بيروت[٢٢].

على أنَّ تلك العلاقات التجاريَّة بين الطرفين بدأت تتدهور بعدما تمكَّن البرتغاليون من تثبيت أقدامهم على شواطئ الهند منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلاديِّ، وبدءوا يهاجمون السفن المحمَّلة بالبضائع الهنديَّة إلى موانئ البحر الأحمر، لقطْع كلِّ اتصال بها وتحويل متاجر الشرق الأقصى إلى أسواق لشبونة، ثم أخذت أعمالهم الإجراميَّة في المحيط الهنديّ تزداد عامًا بعد عام، ففي عام (٩٠٦هـ/ ١٥٠١م) أَغرق الأسطول البرتغاليُّ في ميناء كالكيوت بالهند بعضَ سفن التجار المصريين، ومن بينها سفنٌ تابعة للسلطان قنصوه الغوري (المتوفى ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م) كانت على وشك الإبحار إلى مصر، محمَّلة بالتوابل وعليها عدد كبير من الحجاج الهنود في طريقهم إلى جدة[٢٣]. وترتَّب على ذلك أنْ قلَّت البضائع الهنديَّة في موانئ الدولة المملوكيَّة وارتفعَت أسعارها، واضطر التجار الوافدون إليها بهدف شراء التوابل الهنديَّة إلى التحول عنها إلى أسواق لشبونة[٢٤]. ولمّا كان السلطان الغوريّ عاجزًا عن اتخاذ أيِّ إجراء صارم ضد البرتغاليين، فقد اضطر إلى العودة إلى سياسة الضغط على البابوات وملوك الفرنج[٢٥].

وخرجَت تَجْرِيَدةٌ من المماليك بقيادة الأمير حسين الكردي، وبصُحبتها عددٌ كبير من البنائين والصُّناع للإبحار من السويس على رأس أسطول يتكون من زُهاء خمسين سفينة. ونشبت الحروب بين القوات البحريَّة المصريَّة والأسطول البرتغاليّ عند شواطئ الهند الجنوبيَّة، وتمكّنت القوات المصريَّة في بادئ الأمر من إنزال الهزيمة بالأسطول البرتغاليّ في صيف عام (٩١٣هـ/ ١٥٠٨م) في موقعة جوليا على الشاطئ الغربيِّ للهند، غير أنه ما كادت النجدة تصل إلى البرتغاليين في العام الموالي حتى تقدَّموا لمهاجمة الأسطول المصريِّ، وألحقوا به هزيمة ساحقة في عام (٩١٤هـ/ ١٥٠٩م) انتهت بإغراق جميع وحداته في خليج ديو[٢٦]. وعلى كلِّ حال، فقد ترتب على الصراع بين المصريين والبرتغاليين في مياه المحيط الهندي ضعفُ النشاط التجاريِّ بين شواطئ الهند وموانئ البحر الأحمر، ومن ثَمّ انصراف تجار الفرنج عن أسواق مصر والشام إلى أسواق لشبونة، ففي عام (٩٢٠هـ/ ١٥١٤م) أدّى اشتداد الأزمة الماليَّة بمصر إلى خراب بندر الإسكندرية وبندر جدة وبندر دمياط، بسبب اعتداءات الفرنج على التجار في بحر الهند، فلم تدخل المراكب والبضائع إلى بندر جدة نحوًا من ستِّ سنين[٢٧]. وهكذا، تقلّصت الروابط والصلات التجاريَّة والدبلوماسيَّة بين مصر والهند خلال عصر الاستعمار البرتغاليِّ والبريطانيِّ.

هذا مما كان يتعلق بطبيعة العلاقات الدبلوماسيَّة والتجاريَّة بين مصر والإمارات الإسلاميَّة الساحليَّة في الهند وسِيلان، والسؤال هنا: متى وكيف بدأت العلاقاتُ الدبلوماسيَّة بين مصر وسلاطين دهلي؟ وما الظروف والدوافع التي جعلت سلاطين دهلي يوطدون عَلاقتهم بالقاهرة بعد نقل الخلافة العباسيَّة إليها؟ وهل كانت علاقتهم الدبلوماسيَّة مقتصرةً على الخلفاء العباسيين فحسب، أمْ أنهم سعوا إلى تقوية علاقتهم بالسلاطين المماليك أيضًا؟

وقبل البحث عن إجابة هذه الأسئلة، يجدر بي أنْ أكتب في المبحث الآتي عن مكانة الخلافة العباسيَّة لدى السلاطين الشرقيين، ودور الخلافة في دعم شرعيتهم في الحكم والسياسة، وذلك لكي نفهم حقيقة حرص سلاطين دهلي على إظهار الولاء للخلفاء العباسيين، وتوطيد علاقتهم بهم في القاهرة.

مفهوم العَلاقاتِ الدبلوماسية والدينية بين الخلافة العباسية والسلاطين الشرقيين

رغم التوتر والغموض الذي كان في بعض الأحيان يشوب العلاقاتِ بين الخلفاء العباسيين والسُّلالاتِ الشرقيَّة الحاكمة في آسيا الوسطى وإيران وأفغانستان، والتي كانت تتضمن تبادل السفاراتِ واليمين والتكريم، تشير الأدلة إلى تحمُّسِ كلا الطرفين لتقوية تلك العَلاقاتِ المتبادلة المعترف بها باعتبارها ذات مغزى سياسيٍّ واقتصاديٍّ، وتستحقُّ الاعتزاز والاحتفاظ بها. ولا ريبَ أنَّ لتلك العَلاقاتِ الدبلوماسيَّة المتبادلة أهميةً لدى الطرفين، فكانت الشرعيَّة السياسيَّة الممنوحة من جانب الدولة العباسيَّة لتلك الإماراتِ الشرقيَّة تنتقل إلى مستوى أدنى بين السلالاتِ المستقلة، بحكم أمر الواقع والمسئولين التابعين لها، والتابعين المحليين الذين أصبحت لهم الخِلْعَة على وجه الخصوص رمزًا للالتزام والولاء المتبادلينِ بين الرئيس والمرءوس[٢٨].

ولا يبدو أنَّ ذلك الاهتمام باستعمال الشاراتِ والرموز الخاصة بالحكم والشرعيَّة الحاصلة من بلاط الخليفة العباسيِّ لدى تلك الإمارات والدُّوَيلات المستقلة كان مجرد استعارة أو تقليد حيال الخلافة فقط، بل كان بالأحرى نتيجة زخم متعمّد من جانب بلاط الدولة العباسية، بغرض الحفاظ على بعض مظاهر السيطرة على تلك الدويلاتِ المستقلة[٢٩].

والغزنويون (٣٦٦-٥٨٢هـ/ ٩٧٧-١١٨٦م) بوصفهم تابعين، ثم بوصفهم الورثة السياسيين الرئيسين للسامانيين حيث تبنوا الرمزيَّة والنظريات السياسيَّة المنبثقة من البلاط السامانى، وفي الوقت نفسه كانوا محاربين على حدود العالم الإسلاميِّ، كانوا يسعون إلى الاستفادة القصوى من إقامة العلاقاتِ بالخلفاء العباسيين الذين اعترفوا بهم، لا سيما الجانب الخاصّ المتعلق بقيام محمود الغزنويّ بتوسيع نطاق سيادته السياسيَّة والعسكريَّة. والحقُّ أنَّ الخلفاء العباسيين من جانبهم كانوا مستعدين تمامًا للاعتراف بالدولة الغزنويَّة، واسترضاء حكامها المتعاقبين لأسباب دينيَّة وسياسيَّة، فقد كان الغزنويون ينتمون إلى المذهب السُّنيّ. وفي تلك الفترة نفسها كانت بغداد والخلافة تحت هيمنة السلالة البوهيَّة (٣٣٤-٤٤٧هـ/ ٩٤٥-١٠٥٥م)، وكذلك كانوا مهدَّدين بوجود نظام الدولة الفاطميَّة في القاهرة، وتمدُّد سيادتها نحو الشرق لا سيما السند والملتان[٣٠].

ومِن ثَمَّ، لم يواجه السلطانُ محمود الغزنويّ (٣٨٨-٤٢١هـ/ ٩٩٨-١٠٣٠م) صعوباتٍ كبيرة في الحصول على الشرعيَّة السياسيَّة، وتلك الرموز والخِلعة السياسيَّة لتثبيت حكمه وشرعيته حاكمًا مستقلًّا فعليًّا بحكم الأمر الواقع، مع بقائه خادمًا مخلصًا للخليفة بحكم القانون والشرعيَّة. وفي الوقت نفسه، استغلَّ تلك الشرعيَّة والخِلعة في نشاطاته العسكريَّة ضد الدويلات والإمارات الإسلاميَّة وغير الإسلاميَّة، والاستيلاء عليها وتوسيع نطاق سيادة الدولة الغزنويَّة على حساب الخلافة العباسيَّة.

ففي وقت مبكر من عام (٣٨٩هـ/ ٩٩٩م)، أرسل السلطان محمود الغزنويُّ «فتح نامه» إلى الخليفة القادر بالله (٣٨١-٤٢٢هـ/ ٩٩١-١٠٣١م)، أكّد له فيه أنه أعاد اسمَ الخليفة في خُطب الجمعة إلى المناطق التابعة للدولة السامانيَّة، وأرغم حكامَها على الطاعة

(لوحة ٣)

عملة نادرة وواحدة من العملات المعدنية التي سُكّت على عهد السلطان محمود الغزنويّ في محمود پور بلاهور عام (٤١٨هـ/ ١٠٢٧م)، وقد نقش عليها اسم محمود ولقبه «يمين الدولة وأمين الملة محمود الغزنوي»، واسم الخليفة العباسي القادر بالله، باللغتين العربية والسنسكريتية.

(لوحة ٤)

عملة ذهبية سُكّت على عهد السلطان مُعِزّ الدين محمد بن سام الغوريّ في عام (٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م). ونُقش عليها اسم كلٍّ من السلطان والخليفة العباسي الناصر لدين الله. وتحمل النقوش العبارة الآتية: «السلطان الأعظم/ مُعِزّ الدنيا و/ الدين أبو المظفر/ محمد بن سام، لا إله إلا الله/ محمد رسول الله/ الناصر لدين الله/ أمير المؤمنين».

والخضوع للخليفة. وفي المقابل أرسل الخليفةُ «منشور نامه»، وعيّنه حاكمًا لمنطقة خراسان كلها، ومنحه ألقابًا فخمة مِن مثل: «والي أمير المؤمنين»، و«يمين الدولة» و«أمين الملة» وغيرهَا من الألقاب الفخمة. وقام محمود بسَكِّ نقودٍ تحمل اسمَه واسمَ الخليفة معًا، كما أمر بذِكر اسم الخليفة في خُطب الجمعة، وعلى لسان العُتْبِيِّ: «فتَقارن ذِكراهما في الخطب، وتَرافق اسماهما على صفحات الفضة والذهب»[٣١].

وقد ذكر العُتْبِيُّ مناسبةَ الخِلَع التي أفاضها الخليفة القادر بالله على محمود الغزنويِّ، ووَفْقًا لقوله: أوجبَ القادر بالله أمير المؤمنين له خِلَعًا لم يُسمع بمثلها محمولةً من دار الخلافة، ولقّبه في كتابه بيمين الدولة وأمين الملة لقبًا كان مصونًا في صدف الشرف، ولم تنلْه قَطُّ أيدي الغاصة على كثرة الطلاب وتنافُس الملوك في الألقاب، فتبوّأ سريرَ المُلك واجتاب خِلعة المجد، وأذاع شعار الطاعة لأمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين. وقام بين يديه أمراء خراسان سماطين مقيمين رسم الخدمة، وملتزمين حكم الهيبة... واستجابت خراسان لأمره، وفرعت منابرها بذِكره، واتّسقت الأمور عن آخرها في كَنَفِ إِيَالَتِهِ، واستوسقت الأعمال في ضمن كفالته، وفرض على نفسه في كلِّ عام غزوًا في الهند ينصر به الدين، ويقمع أعداء الله الملحدين...»[٣٢].

وفي مناسبةٍ أخرى، حينما أرسل الخليفة الفاطميُّ كتابًا إلى السلطان محمود الغزنويِّ بعثَ به الأخير بدوره إلى بغداد حيث أُحرِق علانية[٣٣]. وفي وقتٍ لاحق حينما أرسل الحاكم الفاطميُّ مبعوثًا إلى غزنة، واسمه التاهرتي، فاعتقله محمود، وطلب من العلماء والفقهاء إدانتَه، وعليه أُعدم ذلك المبعوث عام (٤٠٣هـ/ ١٠١٢-١٠١٣م)[٣٤]. وبعد إعدام التاهرتي ووَفْقًا للعتبي، فإنَّ الخليفة القادر بالله كتب إلى السلطان محمود بما ترامى إليه من خبر الرسول، وما يقتضيه الدين من التصلب عليه، وتقديم الجدّ في الانتصاب للإسلام والمسلمين منه، فلما ختم أمره بما تقدَّم ذِكره، أنهى إلى مجلس الخلافة صورةَ الحال... فقوبل من القبول بمقتضاه، وجُزِيَ الخير على ما أتاه وتوخّاه...[٣٥].

وقد قدَّر الخليفة القادر بالله عصبيَّةَ محمود الدينيَّة وتشدُّدَه تقديرًا بالغًا، ومنحَه ألقابًا إضافيَّة من مثل: «نظام الدين»، و«ناصر الحق»، وحينما هاجم السلطانُ محمود مهاجمةً شرسة على منطقة كاتيهاوار في گجرات الهنديَّة، وهدمَ معبدَ سومنات ونهبه في عام (٤١٧هـ/ ١٠٢٦م) لقّبه القادر بالله بكهف الدولة والإسلام[٣٦]. ومن الواضح أنَّ مثلَ ذلك الاستحسان العلني والسفارات والمكاتبات الودية المتصلة والمنشورات والخلعة والألقاب الفخمة من قِبل الخليفة لمحمود الغزنويِّ عزّزت مكانته وشرعيته، بصفته أكبر حاكم مسلم في الشرق الإسلاميِّ.

وحينما بدأ عهد ابنه مسعود (٤٢١-٤٣٢هـ/ ١٠٣١-١٠٤١م) أصبح الاحتفال بوصول الخِلعة العباسيَّة عاملًا مشتركًا لإثبات التفوق بين الأعلى والأدنى شأنًا، فقد مثّل ذلك الأمر شغفًا لدى النخبة الحاكمة الشرقيَّة لإظهار التفاخر بارتداء الخِلْعَة والأَوْشِحَة الفاخرة المرسَلة من جانب الخليفة، في البلاط وبين العوامِّ. وثمة أخبارٌ وروايات كثيرة مذكورة عن ذلك في الحولياتِ المعاصرة للدولة الغزنويَّة والغوريَّة، ومنها ما رواه المؤرخ البيهقيُّ بأنه في بداية الحكم وصل المبعوث العباسيُّ من جانب الخليفة القادر بالله، الذي استقبله السلطانُ الجديد في خِضَم احتفال كبير في نيساپور في (شهر شعبان ٤٢١هـ/ الموافق أغسطس ١٠٣٠م). أتى ذلك المبعوث بورقة التفويض «منشور نامه» أقرَّ فيها الخليفةُ سُلطته وحكمه، فضلًا عن ذلك منحه ألقابًا فخمة. وكذلك أحضرَ معه هدايا غالية بما في ذلك رداء الشرف الأسود (الرمز العباسيّ)، ومن المفترض أنَّ الخليفة كان قد ارتداه مرة واحدة، بالإضافة إلى قِطَعٍ من القماش الفاخر، وعشرة خيول عربيَّة أصيلة. وقد أمر مسعود باستعراض كلِّ تلك التحف استعراضًا عامًّا، وذلك من أجل تحقيق الأهداف السياسيَّة المتمثلة في الحصول على الشرعيَّة السياسيَّة له للجلوس على عرش غزنة، بدلًا من شقيقه محمود الذي كان لا يزال يحكم غزنة حكمًا ضعيفًا[٣٧].

كما وصف البيهقي وصول منشور الخليفة العباسيِّ للسلطان مسعود عقب وفاة محمود الغزنوي، فكتب قائلًا: لقد وصل منشور أمير المؤمنين القادر بالله... وأبلغه أميرُ المؤمين في المنشور إقرارَه إيّاه على ما دخل في حوزته من ولاياتِ الرِّي والجبال وأصفهان... كما وعده بأنْ يرسل إليه على الأَثَرِ ما طلبه من اللواء والعَهد مع رسوله. وبذلك اطمأنَّ خاطر الأمير مسعود بتلك الرسالة واستبشر بها كثيرًا، وأمر بأنْ تُقرأَ على الملأ، وبأنْ ينفخوا الأبواق ويدقوا الطبول استبشارًا، ونسخوا من تلك الرسالة صورًا أرسلوها إلى أصفهان وطارم ونواحي الجبل وجرجان وطبرستان ونيساپور وهراة، حتى يتأكد لدى الناس أنه خليفة أمير المؤمنين، ووليّ عهد أبيه»[٣٨].

وقد خصص البيهقي صفحاتٍ عديدة لوصف كيفيَّة وصول السفارة العباسيَّة ومظاهر ضيافة رسول الخليفة، فضلًا عن وصفه للهدايا والخلعة والمنشور إلخ[٣٩]. وعلى كلِّ حال، أمر السلطان مسعود بأنْ يكتب إلى هراة وبوشنگ وطوس وسرخس وأماكن أخرى تابعة له بهذه البشائر التي مُنحها من مجلس الخلافة، فنُسخت صور من المنشور والرسالة أبرزوا فيها الألقاب التي يُدعى بها هذا السلطان الجليل، ويُخطب بها على المنابر، وكانت النعوت السلطانيَّة كما يلي: «ناصر دين الله»، «حافظ عباد الله»، «المنتقم من أعداء الله»، «ظهير خليفة الله»،

و«أمير المؤمنين» إلخ[٤٠]. وحمل الرُّسل هذه الرسائل المنسوخة، وأقيمت الخُطب في كافة البلاد باسم السلطان مسعود، وامتدَّ سلطانه على نواحي خراسان كافة، وقويت عزيمة السلطان مسعود بعد أنْ عاد هذا الرسول، وأخذت الأمور لونًا آخر[٤١]. ومما لا شكَّ فيه أنه في ذلك الوقت كانت رمزيَّة الاحتفال بالحصول على الخِلعة والتفويض تتعلق في المقام الأول بالخليفة، وبأولئك الذين كان يعدّهم تابعين له، بيد أنَّ الخِلعة أصبحت مقياسًا لتأكيد العَلاقات الخاصة والعامة بين الرؤساء والمرءوسين[٤٢].

وما بين سقوط غزنة في عام (٥٤٥هـ/ ١١٥٠-١١٥١م) وقيام سلطنة دهلي في العقد الأول من القرن السابع الهجريّ/ الثالث عشر الميلاديّ، وقعَت الطفرة الفاصلة لحكم الغوريين، أو كما عرّفهم المعاصرون لهم «الشنشابنيون»[٤٣]، فقد حاولت تلك السلالة الغوريَّة المجهولة -بالإضافة إلى توسيع نطاق سيادتها- الحصولَ على نوع من الشرعيَّة السياسيَّة التي كان يتمتع بها السامنيون والغزنويون سابقًا من خلال إقامة عَلاقاتٍ دبلوماسيَّة مباشرة مع بغداد. ومن المؤكد أنَّ تلك العَلاقاتِ ساعدَت الغوريين على ادِّعاءاتهم بالحكم والسلطة على أنقاض الدولة الغزنويَّة، ويتضح ذلك تمامًا حينما طلب غِياث الدين -المؤسس الحقيقيّ لتلك السلالة الحاكمة- من أتباعه عند توليه الحكم في عام (٥٥٨هـ/ ١١٦٣م) أخْذَ البيعة قبل جلوسه على كرسيّ الحكم[٤٤]. وفي وقت لاحق، حينما استولى غِياث الدين على غزنة جعلَ شقيقه مُعِزَّ الدين السام نائبًا له لحكم غزنة وتوابعها، الذي أصبح بدوره مستقلًّا ومنفردًا في الحكم إلى حدٍّ ما، مع السيطرة الكاملة على الأراضي التابعة للدولة الغزنويَّة، بما فيها شمال الهند[٤٥].

ولأنَّ السلطان غِياث الدين أراد أن لا يكون وضعُه أدنى من مكانة السلاطين الغزنويين، وأنْ يضمن تلك المكانة السياسيَّة بين أقرانه في الشرق -أرسل سفارتين إلى بغداد، طالبًا -على الأرجح- من الخليفة العباسيّ الشرعيَّةَ له، وتأكيدَه للوضع الجديد للغوريين. ومع أنه لا يوجد دليل دامغ على موقف الخليفة من تلك السفارتين الغوريتين، إلا أنَّ المصادر تفيد بوصول سفارتين متبادلتين من جانب بغداد، فقد أرسل الخليفةُ المستضيءُ بأمر الله، واسمُه أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد (٥٦٦-٥٧٥هـ/ ١١٧٠-١١٨٠م) السفارةَ الأولى، أمّا الثانية فوصلتْ من جانب الخليفة الناصر لدين الله واسمُه أبو العباس أحمد ابن المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن (٥٧٥-٦٢٢هـ/ ١١٨٠-١٢٢٥م)، ووصلتْ في تَيْنِك السفارتينِ ورقةَ التفويض «منشور نامه» والخِلَعَ الفاخرة مُقرِّينَ بشرعيَّة حكم غِياث الدين الغوريّ.

والحقُّ، أنَّ كِلا الخليفتينِ آنذاك كانا يواجهان مشكلة واحدة ومشتركة، ألا وهي عداوة السلاطين الخوارزميين، لا سيما السلطان خوارزم شاه (٥٦٧-٥٩٦هـ/ ١١٧٢-١٢٠٠م)، ومِن ثَمّ، سعى كلٌّ منهما إلى الإفادة من غِياث الدين وقوته السياسيَّة والعسكريَّة لخلق الثقل الموازن[٤٦]. وفي المرة الثانية لدى وصول السفارة البغداديَّة استُعرضَتِ الخِلْعَة استعراضًا عامًّا مع قرع الطبول الذي استمر فيما بعد خمس مراتٍ كلَّ يوم، وذلك لأنَّ النوبات تُعد مؤشرًا على تعزيز مكانة الحاكم وشرعيته[٤٧]. وبطبيعة الحال كان الهدف لدى الخلفاء العباسيين من تكريم السلطان غِياث الدين الغوريّ ومنحِه الشرعيَّة السياسيَّة يكمن ضمنًا في أنَّ غِياث الدين سيحمي الخليفة من أطماع الدولة الخوارزميَّة في توسيع نطاق سيادتها نحو بغداد. ويتضح ذلك من كلام الجوزجانيّ، حيث بدأت مبادلة السفارات بين الطرفين بعدما هزم السلطان شاه جلال الدين محمود بن إيل أرسلان خوارزمشاه عدة مراتٍ أمام جيوش الغوريين[٤٨].

أُغتيل مُعزُّ الدين محمد السام في عام (٦٠٢هـ/ ١٢٠٦م)[٤٩]، وبعد ذلك مباشرة واجَه تاج الدين يلدز (أحد أمراء معز الدين) معارضة ضد تسلُّمه للقيادة العسكريَّة للدولة الغوريَّة في الهند[٥٠]. ومن الواضح أنه بحلول ذلك الوقت، كان الأمراء ملازمين للسلطان الراحل، والذين أدوا دورًا كبيرًا في تاريخ شمال الهند، من مثل قطب الدين أيبك[٥١]، وناصر الدين قباچة[٥٢]، ومحمد بن بختيار الخلجي[٥٣]، وفيما بعد شمس الدين إيلتتمش، بدأ كلُّ واحدٍ منهم يُعِدُّ نفسَه بالفعل لإرساء قواعد السلطة، وتقديم نفسه من أجل الاستقلال الفعليّ في المستقبل. ولعلَّ من المناسب أنْ نقتبس مما ذكره الجوزجانيُّ في كتابه طبقات ناصري.

ووفقًا لقوله، صارت أطراف مملكة الغور كلها تحت تصرُّف عبيده[٥٤]، فالسلطان تاج الدين يلدز، والسلطان قطب الدين أيبك وغيرُهما من ملوك الترك وأمرائهم كانوا عبيدًا للسلطان مُعزِّ الدين، وكان لكلّ واحد منهم معروفٌ أرسله إلى البلاط، والتمسوا منه ورقةَ العتق والتفويضَ لملك غزنين والهند، فأرسل غِياثُ الدين إلى السلطان تاج الدين يلدز المِظَلَّةَ والمرسومَ لتكونَ ممالك غزنين تحت تصرُّفه[٥٥]، وحينما قدِم السلطان قطب الدين أيبك إلى غزنين، وأرسلَ نظام الدين محمد إلى فيروز كوه، في سنة خمس وستمائة أمرَ له بالمظلة الحمراء ومرسومَ ممالك الغور وغزنين والهند، وجعل أولئك السلاطين والملوك التابعين لغِياث الدين الغوريّ في الغور وغزنين والهند الخُطبةَ والسَّكَّةَ باسم السلطان غِياث الدين، فقد عظَّمه الملوك والسلاطين جميعهم في تلك الممالك، ودانوا له بالطاعة والولاء[٥٦]. ومما

سبق نرى أهمية الخِلعة وورقة التفويض الصادرة من الخلفاء العباسيين لدى السلاطين الشرقيين الذين وجدوا فيها ضالتهم المنشودة لتقوية سلطتهم الشرعيَّة ومكانتهم السياسيَّة، وفي الوقت نفسه كانوا بدورهم يمنحون ذلك التفويض نيابةً عن الخلفاء العباسيين لأُمرائهم وَوُلاتهم الذين ينوبون عنهم وعن الخليفة في حكم بلادهم مستقلينَ، مع أنَّ الخلافة لم تعُد لها سلطة سياسيَّة وقوة عسكريَّة وهيبة دينيَّة. والسؤال المطروح الآن هو: كيف كان موقف سلاطين دهلي من ذلك التفويض العباسيِّ؟ وهل كانوا أيضًا بحاجة إلى الحصول عليه لتثبيت حكمهم؟ ولماذا حاولوا تعزيز صلتهم بالخلافة التي كانت تمرُّ آنذاك بمرحلة حَرِجة من الضَّعف والهوان؟ هذا ما سنتحدث عنه في المقالة الآتية.

ماهيــة العَلاقــات الدبلوماســيَّة بــين ســلاطين دهــلي والخلافــة العباســيَّة في بغــداد والقاهــرة

عَلاقــة الســلطان قطــب الديــن أيبــك وخلفائــه بالخلفــاء العباسيين

مع أنَّ شمس الخلافة العباسية في بغداد كانت تميل نحو الغروب، كان سلاطين دهلي يرون أنَّ الارتباط بهذا المركز الإسلاميِّ العالميِّ والحصول على الشرعيَّة السياسيَّة والتفويض منه -التزامٌ قانونيٌّ وشرعيٌّ مهم. وهذا هو الرأي العامُّ السائد في جميع الدول والإمارات في الشرق والغرب، ما عدا بعض الإمارات الشيعيَّة. وفي هذا الصدد كتب المؤرخ المصريُّ خليل ابن شاهين الظاهريّ (المتوفى ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م)، أنَّ الله ﷻ جعل الخليفة العباسيَّ حاكمًا على جميع أرض الإسلام، ومِن ثَمّ، لا يجوز أنْ يُطلَق في حقِّ أحد لفظ سلطان من ملوك الشرق والغرب إلا إذا كان بالمُبايعة منه. ووَفْقًا لقوله، فإنَّ العلماء والفقهاء أفتَوا آنذاك بأنه مَن أقام نفسَه سلطانًا قَهْرًا بحدِّ السيف من غير مُبايعة منه يكون خارجيًّا، ولا تجوز توليته أحدًا من النواب والقضاة، وإنْ فعل شيئًا من ذلك، كان جميع حُكمهم باطلًا وعقد الأنكحة باطلًا. وكتب المؤرخُ نفسُه أنه رأى في بعض الأحيان كُتبَ عهودٍ بتفويض سلطنات لعدة ملوك من ديوان الخلافة، واحدًا منها للملك الكامل الأيوبيِّ خليل ابن الملك الأشرف أحمد ابن الملك العادل سليمان صاحب حصن كيفا من ديار بكر، وآخر لصاحب اليمن، وواحدًا لصاحب الهند، وآخر لصاحب مكة[٥٧].

كانت عظمة الخلافة تتغلغل في نفوس الناس وقلوبهم، ومِن ثَمّ، حينما كان السلطان يظهر أمامهم نائبًا عن الخليفة ومفوضًا عنه وممثلًا لذلك المركز الإسلاميِّ العالميِّ، لم يملك العوامُّ إلا

(لوحة ٥)

تنكة فضية ضَرَبَها السلطان شمس الدين إيلتتمش في دهلي عام (٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م)، وتحمل العملة أيضًا اسم الخليفة العباسي الناصر لدين الله: «السلطان الأعظم/ شمس الدنيا والدين/ أبو المظفر إيلتتمش/ السلطان ناصر/ أمير المؤمنين، لا إله إلا الله/ محمد رسول الله/ الناصر لدين/ الله أمير المؤمنين».

(لوحة ٦)

تنكة فضية ضربها السلطان شمس الدين إيلتتمش في دهلي عام (٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م)، وتحمل العملة اسم الخليفة العباسي المستنصر بالله. «السلطان الأعظم/ شمس الدنيا والدين/ أبو المظفر إيلتتمش/ السلطان ناصر أمير المؤمنين، لا إله إلا الله/ محمد رسول الله/ المستنصر بالله/ أمير المؤمنين».

أن ينظروا إليه نظرة احترام وتقديس، فقد كان المسلمون العوامّ يَعُدّون الخلافة منبع السلطة العليا ومركزها. ومما يدل على ذلك أنَّ الشاعر الهندي تاج الدين زيرة حينما تعرَّض للضرب على يد رجل، قدَّم شكوى لخدمة السلطان إيلتتمش، وكتبَ فيه أنه إذا لم يُنصفه السلطان، فإنه سيحضر المحكمة العليا عند الخليفة، وسيُجري نهر دجلة الآخر بدموعه[٥٨].

وعلى كلِّ حال، حينما مات قطب الدين أيبك في أثناء لعبه البولو عام (٦٠٧هـ/ ١٢١٠م)، خَلَفَه ابنُه آرام شاه[٥٩] لمدة وجيزة، غير أنَّ مملوك قطب الدين أيبك المفضّل -شمس الدين إيلتتمش[٦٠]- الحاكم آنذاك في البدايون تمكَّن من الإطاحة بابنه المذكور آنفًا من عرش دهلي وحلَّ محله[٦١]. ولا ريبَ أنَّ ذلك الاغتصاب السافر زاد الأمر سوءًا لأنه حصل ضد ابن سيده الراحل، وهو الأمر الذي جعل وضع إيلتتمش السياسيّ صعبًا ومعقدًا للغاية، وأجبره على إرسال سفارة إلى تاج الدين يلدز في غزنة من أجل إرسال العهد أو رسالة التفويض ومظلة «چهتر»، وصولجان «دورباش»[٦٢]. ويجدر بنا -أيضًا- أنْ نشير

(لوحة ٧)

تنكة فضية ضَرَبَها السلطان ناصر الدين محمود في دهلي، وتحمل العملة اسمَ السلطان واسم الخليفة العباسيّ المستعصم بالله. ويفيد النقش: في عهد الإمام المستعصم بالله أمير المؤمنين، السلطان الأعظم ناصر الدنيا والدين أبو المظفر محمود شاه بن سلطان».

(لوحة ٨)

تنكة ذهبية سَكَّهَا السلطانُ غِياث الدين بلبن في دهلي عام (٦٨٠هـ/ ١٢٨١م)، وتحمل العملة اسم الخليفة العباسي المستعصم بالله. وتفيد العبارة المنقوشة: «الإمام المستعصم/ أمير المؤمنين، السلطان الأعظم/ غياث الدنيا والدين/ أبو المظفر بلبن/ السلطان».

هنا إلى مثالٍ مشابه إلى حدٍّ ما لما يمكن تسميته «إقطاعي تابع» والذي حصل قبل بضع سنوات، عندما عاد محمد بختيار الخلجي إلى لاهور مع غنائم باردة غَنِمَها في حملاته العسكريَّة ضد بنگال وبهار؛ جعله قطب الدين أيبك حاكمًا فيدراليًّا على ذلك الإقليم الذي غزاه واستولى عليه، ومنحه ما يوصف بـ«الخلعة» أو «التشريف» الخاص به ويطلق عليه اسم «سلطاني» وهو الذي تسلَّمه السلطان أيبك نفسُه من جانب السلطان معز الدين محمد الغوري، وأَمَرَ -كذلك- بإعزازه إعزازًا وافرًا، وفقًا للمؤرخ الجوزجاني[٦٣].

ومن المفارقات العجيبة، أنَّ ذلك الرجل الذي أرسل رسالة التفويض نفسَه قتله شمسُ الدين إيلتتمش. وفي الواقع، يُبيّن المصيرُ الذي ناله تاج الدين يلدز الطريقةَ التي أفسح بها الاهتمامُ بالتفاصيل الرسميَّة الدقيقة للتشريع المجالَ بسهولة إلى صراعاتٍ جديدة على السلطة. ووفقًا للمؤرخ الجوزجاني أنه حينما تقدَّم خوارزم شاه علاء الدين محمد إلى غزنة واستولى عليها في عام (٦١٢هـ/ ١٢١٥-١٢١٦م)، اضطر تاج الدين يلدز إلى الانسحاب هو وقواته إلى ما وراء نهر السند، بل إلى الأراضي التي حُددت قبل فترة وجيزة على أنها تابعة لسلطنة دهلي؛ أيْ السلطان إيلتتمش. ومن ثَمَّ، نشب صراع عسكريٌّ بين الطرفين، والتقت القوات الشمسيَّة واليلدزيَّة في معركة وقعَت بالقرب من پاني پت في سهول پنجاب، انهزمت قواتُ يلدز أمام القوات الشمسيَّة وانكسرت شوكتها، وأُسر يلدز نفسُه. وبعد فترة وجيزة نُقل إلى بدايون، وأُعدم[٦٤].

وقد أدى استيلاء خوارزم شاه على غزنة إلى قطع العلاقاتِ المتبادلة بين غزنة وغور القديمة غربَ نهر السند. ولأنَّ السلطان قطب الدين أيبك مات، وقضى إيلتتمش على منافسيه، وفي طليعتهم تاج الدين يلدز، وناصر الدين قباچة الذي كان يحكم منطقة السند والملتان وأچه آنذاك، واستمر في الحكم نحو اثنين وعشرين عامًا[٦٥] -استطاع إيلتتمش توسيع نطاق حكمه في المنطقة الشماليَّة الهنديَّة برُمّتها[٦٦]. أمّا محمد بختيار الخلجي فاستقلَّ في إقليم بنگال، وكان ينتمي إلى قبيلة خلج، ولم يكن مملوكًا. وقد انبثقَت شرعيَّة السلطان إيلتتمش التي تمتَّع بها كلُّ أولئك الحكام الفعليين والمستقلين ذات مرة من ورقة التفويض التي حصل عليها قبل فترة سيدهم السلطان غِياث الدين محمد بن سام من الخلافة العباسيَّة. ولم تعُد تلك الشرعيَّة ذات أهمية كبيرة بسبب وصولها إليه بصورة غير مباشرة، وصار بذلك فراغ سياسيٌّ من نوع ما، وهو الأمر الذي دفع السلطان إيلتتمش إلى بدء الاتصال المباشر مع بغداد.

والسؤال: هل طلب ذلك إيلتتمش بنفسه؟ ليس لدينا ما يؤكد أنه طلب بنفسه ذلك. وكيفما كان الأمر، فكانت النتيجة وصول سفارة من الخليفة المستنصر بالله (٦٢٣-٦٤٠هـ/ ١٢٢٦-١٢٤٢م) إلى دهلي في (٢٤ ربيع الأول ٦٢٦هـ/ الموافق ١٩ فبراير عام ١٢٢٩م) والتي منحت فرصةً للاحتفال العامّ في دهلي، شارك فيه السلطان وأبناؤه وأمراؤه ورجالته وبيت المماليك بأكمله. ووصف المؤرخ منهاج سراج -وهو شاهد عيان- وصولَ السفارة من بغداد قائلًا: «ووصل رُسل دار الخلافة مع التشريفات الوافرة، وحينما وصلوا إلى الحضرة، انعقدَت الاحتفالات، وأُقيمت الزينات في دهلي بأنواع الزخارف، وشُيّدت قباب مزخرفة فيها، وتشرّف السلطان والملوك والأبناء والملوك الآخرون والخدم وجمع العبيد بخِلعة دار الخلافة، وعمَّ الفرح والسرور... واحتشدت فيه جماهير أبناء الهند. وفي وسط هذا المهرجان فُرشت وثيقة الاعتراف أمام الجماهير المحتشدة، ولَبِس السلطان خِلعة الخليفة»[٦٧].

وفي يوم وصول السفارة -كما ورد في تاج المآثر لصدر الدين نظامي- قُدمت ورقةُ التفويض إلى السلطان للحكم على الهند، والخِلعة، ولقب «السلطان المعظم». وفي اليوم الموالي قُرئت تلك الورقةُ بحضور السلطان في بلاطه، وبعد ذلك مَنَحَ هو الخِلعة لأعضاء تلك السفارة البغداديَّة، وكذلك مَنَحَ الخِلَعَ

لبعض أفراد حاشيته ورجالاته[٦٨]. وظلَّ ذلك الحدث حاضرًا في أذهان المؤرخين اللاحقين، ومنهم المؤرخ السرهنديّ الذي سجّل ذلك الحدث بعد فترة طويلة قائلًا: «وقد استوفى السلطان شروط التبجيل والإجلال للخلافة العباسيَّة، وقَبِل تلك الخِلْعَة والألقاب بكلِّ سرور وفخر، وأَلْبَسَ بدوره أبناءه وأمراءه ورجالاتِه إياها». ولعله وصفٌ هائل لإظهار كيفيَّة شعور السلطان بالسرور والسعادة والغِبطة من وصول الشرعيَّة والخِلعة من الخليفة، ومن لبس تلك الخلعة نفسها[٦٩].

ووصف شاعر البلاط تاج الدين ريزة[٧٠]، ذلك الحدث في قصيدة له باللغة الفارسية، يقول فيها ما معناه: إنَّ البشارة التي جاءت إلى السلطان إنما هي هديَّة من الله وتبريكات للعالم، فقد سادت بقدومها أجواء من البهجة والفرحة في المدينة، وأتت في مَعِيتها خِلعة خاصة مَنَحَها أميرُ المؤمنين لهذا السلطان، ووصل الموكب حاملًا تلك الخِلعة المباركة والألقاب العالية لحامي الدين والدولة، ظِل الله شمس الدين الذي بنى بشجاعته ومقدرته حصنًا قويًّا يحمي الناس من الأخطار الخارجيَّة[٧١].

ووفقًا لبعض الباحثين، ظلّ وصول السفارات العباسيَّة قائمًا على عهده، بل وتبعًا لبعض المصادر المعاصرة له، فإنَّ الخليفةَ الناصر (٥٧٥-٦٢٢هـ / ١١٨٠-١٢٢٥م) أرسلَ مولانا رضيَّ الدين حسن الصغاني الهندي (صاحبَ مشارق الأنوار، الذي هاجرت أسرته من بلده بدايون ولاهور واستقرت في بغداد[٧٢]، في عام (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م)؛ أيْ قبل وصول ذلك المنشور بنحو عشر سنواتٍ) سفيرًا إلى بلاط السلطان إيلتتمش، وقد عاد الصغاني إلى بغداد عام (٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م) أيْ بعد وفاة الخليفة الناصر[٧٣]. واستمر الاتصال بين الطرفين، فقد قَدِمت السفارة العباسيَّة برئاسة الصغاني مرة أخرى عام (٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م)[٧٤].

وقد ذكر لنا المؤرخ برني وصولَ السفارة العباسيَّة الأخرى تحت قيادة الشيخ والقاضي جلال عروس، بيد أنه لم يمدّنا بتاريخ وصول هذه السفارة، ولكنه كتب أنه قدَّم ضمن الهدايا الأخرى كتابًا بعنوان «سفينة الخلفاء» في نصائح الملوك، والذي كان عبارة عن النصائح المنطوقة بلسان الخليفة هارون الرشيد التي دوّنها الخليفة المأمون الرشيد بقلمه، وتلك النسخة نفسُها أتى بها القاضي جلال إلى السلطان إيلتتمش الذي غمرته سعادة بالغة، لدرجة أنه أراد أنْ يمنحه نصف مملكته[٧٥].

ويتضح من ذلك تمامًا، أنَّ إيلتتمش رغم شخصيته الكارزميَّة، ومكانته العسكريَّة لدى الأمراء الأتراك، احتاج إلى الخِلعة والتشريف من الخليفة العباسيِّ لتقوية مكانته السياسيَّة وسْط الأمراء والملوك الأتراك، ولإثبات شرعيته للجلوس على عرش دهلي، غير أنَّ تلك الشرعيَّة غير المباشرة لم تعُد لها أهمية فيما بعد، ومن ثَمَّ بادر إلى الحصول على تلك الشرعيَّة وورقة التفويض من الخليفة العباسيِّ نفسه وبصورة مباشرة، من أجل تحقيق ما كان يصبو إليه من تقوية مكانته السياسيَّة.

من المنطقي أنْ نفترض أنَّ ذِكر اسم الخليفة في خُطب الجمعة والعيدين قد استمر في العهود السابقة، غير أنَّ السلطان شمس الدين إيلتتمش قد اهتمَّ أكثرَ بهذا التقليد، وبتوطيد تلك العلاقاتِ الغزنويَّة والغوريَّة السابقة ببغداد، وفي الوقت نفسه استعمل أشكال الولاء الشعائري لتأكيد إلزام التابعين له مع الإنعام عليهم ومكافأتهم. وهكذا، عند تسليم الخِلعة من الخليفة، اختارَ واحدةً من بين أفضل المجموعات وأرسلَها مع مِظلة حمراء، إلى ابنه ووريثه ناصر الدين محمود في بنگال. ويذكر الجوزجاني أنه حينما وصلت تشريفاتُ دار الخلافة إلى حضرة السلطان شمس الدنيا والدين من هذه الجملة، أرسل تشريفًا ثمينًا مع مِظلة حمراء إلى لكهنؤتي، وتشرّف الملك ناصر الدين بهذه المِظلة، وتلك التشريفات والإكرامات، ونظرَ إليه الجميعُ من الملوك وأكابر الممالك في الهند بأنه وراث الممالك الشمسيَّة...»[٧٦].

ويبدو أنه منذ ذلك الوقت نُقش اسم الخليفة على نقود سلاطين دهلي. وكما هو معروف، كانت تلك هي المناسبة الأولى والوحيدة التي أَرسلَ فيها خليفةٌ عباسيٌّ من بغداد ورقةَ التفويض والخِلعة لأيٍّ من سلاطين دهلي، فقد أمر السلطان إيلتتمش احتفاءً بتلك المُناسبَة المهمة بضرْب عملة ذهبيَّة تحمل كلمة الشهادة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» على وجهها، في حين نُقِشَ على ظهرها «في عهد الإمام المستنصر أمير المؤمنين»، وبغيةَ ترويج شهادة الخليفة واعترافه بحُكمه للدولة الإسلاميَّة الفتيَّة في دهلي، بيد أنَّ العملة نفسها لا تحمل أيَّ تاريخ لضربها. ومن ثَمَّ، يرى بعض الباحثين أنَّ هذا الأمر يجعلنا نتردد في افتراض أنَّ هذه القطع النقديَّة وحدها -بما تحمل من اسم خليفة بغداد المعزول، دون تاريخ سَكِّها وَجِهَتِهِ- تشكل البداية الحقيقيَّة للعملة الفضيَّة لسلاطين دهلي[٧٧].

وكذلك سَكَّ إيلتتمش عملاتٍ من نوع «تنكه»، ونقشَ عليها لقب الخليفة المستنصر بالله باللغة الهندوستانيَّة بالأحرف السنسكريتيَّة. وعلَّق على ذلك بعض الباحثين بأنَّ التوافق مع هذا الاقتراح الخاصّ بحقبةٍ أوليَّة لضرب العملات الإسلاميَّة البحتة في سلطنة دهلي واقعةٌ مهمة، وتوحي محاولة الحصول على الاعتراف الهرميّ من الخلافة العباسيَّة في بغداد. وفي الوقت نفسه، يتبع ذلك تفسيرًا طبيعيًّا لما شكّل آنذاك صعوبة تحديد تطبيق ألقاب الخليفة وأمير المؤمنين، موضّحًا بالأحرف الهندية لفئات معينة من العوام الهنود، لمعرفة الأخير بألقاب

الخليفة وأمير المؤمنين الذي امتدّت شهرته وحكمه في جميع أنحاء العالم الإسلاميِّ حتى دهلي وما حولها[٧٨]. وكذلك سَكَّ إيلتتمش عملاتٍ فضيَّة تحمل اسمه مع لقبه واسم الخليفة، ومنها تلك التي ضَرَبَها في عام (٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م)، وتفيد العبارة المنقوشة عليها: «لا إله إلا الله محمد رسول الله، المستنصر بأمر الله أمير المؤمنين»، و«السلطان المعظم شمس الدنيا والدين أبو المظفر إيلتتمش السلطان ناصر أمير المؤمنين»[٧٩]. وكذلك أمرَ إيلتتمش بنقش اسم الخليفة على منارة قطب عند إتمام بنائها. ويوجد نقش على أحد الأقواس المركزية بمنارة قطب يحمل تاريخ نقشه عام (٦٢٩هـ/ ١٢٣١م)، كُتب عليه: «أمرَ بهذه العمارة في أيام الدولة السلطانُ الأعظم، شهنشاه المعظم، مالكُ رقاب الأمم، مولى ملوك الترك والعرب والعجم، شمسُ الدنيا والدين، معزُّ الإسلام والمسلمين، ذو الأمن والأمان، وارث ملك سليمان، أبو المظفر إيلتتمش، السلطانُ ناصرُ أمير المؤمنين»[٨٠].

وقد استمرت سُنَّة نقش اسم الخليفة العباسيِّ على عهد أبناء إيلتتمش: السلطان ناصر الدين محمود الذي سَكَّ عملةً ذهبيَّة عام (٦٤١هـ/ ١٢٤٣م)[٨١]. وكذلك كان الحال على عهد السلطانة رضيّة بنت إيلتتمش، حيث إنَّ العملات الفضيَّة المضروبة في عهدها كانت نقوشها: «السلطان الأعظم جلالة الدنيا والدين ملكة ابنت إيلتتمش السلطان مهرة أمير المؤمنين، في عهد الإمام المستنصر أمير المؤمنين»[٨٢]. وخلال الأعوام السبعة والعشرين التي خلتْ قبل قيام المغول بنهب بغداد وخرابها في عام (٦٥٦هـ/ ١٢٨٥م) حكمَ خمسةٌ من أحفاد السلطان إيلتتمش في تتابُع سريع إلى حدٍّ ما، ويفترض أنه لم يتوافر لأيٍّ منهم الوقتُ أو المناسبة لبدء الاتصال ببلاط الخلافة العباسيَّة في بغداد. وفي عام (٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م) خلَف المستعصمُ بالله المستنصرَ[٨٣]، وظهر اسمُه على مسكوكات علاء الدين مسعود شاه، وناصر الدين محمود شاه، وغِياث الدين بلبن، ومعزّ الدين كيقباد، وغيرهم[٨٤].

وثمة نقش مكتوب على بوابة المسجد الجامع الواقع في مدينة كَره مكتيشور في مدينة ميرته، يصف بلبن نفسَه فيه بأنه نصير أمير المؤمنين، الخليفة الذي لم يعد موجودًا! ونص النقش: «مبنى هذه العمارة في عهد السلطنة السلطان الأعظم شاهنشاه المعظم غِياث الدنيا والدين أبو المظفر بلبن السلطان، ناصر أمير المؤمنين... سنة اثنتين وثمانين وستمائة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م»[٨٥]. وكذلك ضربَ السلطانُ غِياث الدين سَكّةً في دهلي عام (٦٨٠هـ/ ١٢٨١م)، وجاء فيها «الإمام المستعصم أمير المؤمنين»، و«السلطان الأعظم غِياث الدنيا والدين أبو المظفر بلبن السلطان»[٨٦]. وكذلك نقشَ أبناءُ السلطان بلبن وأحفاده اسمَ الخليفة على مسكوكاتهم ونقوشهم، وكذلك الذين حكموا إقليم بنگال، ومنهم ركنُ الدين كيكاؤس ابن السلطان ناصر الدين محمود الذي نقشَ اسمَ الخليفة على النقود الفضيَّة المضروبة فيما بين عامي (٦٩١-٦٩٥هـ/ ١٢٩١- ١٢٩٥م)[٨٧].

بادر غِياثُ الدين بلبن إلى ممارسة نمط معين من الآداب السلطانيَّة، وترسيخ مفهومه في البلاط الأكثر تفصيلًا وتعقيدًا مما كان عليه الحال مع أسلافه، فقد حاول إحياء الآداب السلطانيَّة الساسانيَّة، وبذلك يُفترض أنه دعا إلى ممارسة التقاليد والآداب الملكيَّة الساسانيَّة رأسًا التي أسهمت الشعوبيَّة في إحيائها وترويجها ونشرها في ظلِّ الدول والإمارات المستقلة التي ظهرَت في آسيا الوسطى وفي المناطق الإيرانيَّة، لا سيما الدولة الغزنويَّة والغوريَّة[٨٨]. ويُعتقَد أنه إدراكًا منه لأهمية مبايعة الخليفة الذي قُتل منذ زمن طويل والولاء له[٨٩]، شعر بلبن بالحاجة إلى المزيد من الدعم الخارجيِّ لتعزيز سُلطته وشرعيته السياسيَّة بإيلاء المزيد من الاهتمام بالأجزاء الخارجيَّة لمُلكه، التي كانت الأكثر ثراءً وإبرازًا لمظاهر العظمة التي ميّزَت حكم السلالة الخلجيَّة والتغلقيَّة. ومن الصعب قبولُ كلام بعض الباحثين «بأنَّ السلطان غِياث الدين بلبن أولُ مَن استطاع مِن بين سلاطين دهلي الحصولَ على التفويض بالحكم، بعدما راسلَ الخليفةَ العباسي الحاكمَ بأمر الله»[٩٠]؛ وهذا غير صحيح بالمرة فقد سَبَقَه السلطان إيلتتمش كما أسلفنا. ثم كيف كان للسلطان بلبن أن يحصل على التفويض من الحاكم بأمر الله الذي اختفى وقت سقوط بغداد، وهربَ مختفيًا نحوَ دمشق وبويع هناك، ثم كاتبَ الملكَ الظاهر بيبرس، فطلبَه إلى القاهرة وبُويع بالخلافة.

وعلى كلِّ حال، فمع أنَّ الخلافة العباسيَّة سقطت في بغداد قبل اعتلاء غِياث الدين بلبن عرش سلطنة دهلي عام (٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م)، غير أنَّ الأخير ظلَّ ولاؤه للخلافة واعترافُه بها، وواصلَ ذِكر اسم الخليفة في النقود وفي الخطب[٩١]، وواصل ذِكر اسمه في النقوش باسم «ناصر أمير المؤمنين»، ودام على هذا الوضع حتى وفاته عام (٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م)[٩٢]. وأمرَ ابنه وليَّ العهد بأنه يجب عليه الحصول على ورقة التقليد والعهد من الخليفة[٩٣].

ولعل من المناسب أن نشير هنا إلى أن الولاء لإمبراطورية إسلامية واحدة تحت القيادة الرمزية للخلافة العباسية تعرّضَ لتحديات صعبة بعد الغزوات المنغولية، مما جعل الشعوب الإسلامية تتمسك بأهداب دولة المماليك في مصر والشام أو بسلطنة دهلي في آسيا الجنوبية، فقد أدّى سقوط بغداد إلى تشتيت شملها، وانشقّت حياتها السياسيَّة والاجتماعيَّة في منطقة فارس وآسيا الوسطى، وتمخّض عنها هجرات آلاف من الأمراء ورجال الدين والعلماء والمشايخ إلى الهند والاستقرار

فيها، ولم يستقبلهم السلطان بلبن استقبالًا طيبًا فحسب، بل أمر بإنشاء محلات خاصة بهم في دهلي وأطرافها[٩٤]. على أنه لو دققنا الأحداث والوقائع لتلك الفترة لوجدنا أن الهند -وليست الشام ومصر- أصبحت الملاذ الأخير للمهاجرين الفارين من المناطق الإيرانية بعد غزو المغول لتلك المناطق، بل ووفقًا لبعض الباحثين فإن الهند صارت مركزًا آمنًا للحفاظ على التمدن الإسلامي وارتقائه[٩٥].

وكيفما كان الحال، فقد كان من بين أولئك المهاجرين أميرانِ من أبناء آخر الخلفاء العباسيين الذين عاملهما بلبن معاملةً خاصة، وأكرمهما، ولم يكن مسموحًا لأيٍّ أحد بالجلوس في البلاط السلطاني غير ذينك الأميرينِ العباسيينِ[٩٦]. وهكذا، أثبت بلبن ولاءً خاصًّا للخلافة العباسيَّة. ولا شكَّ أنه بعد سقوط بغداد أصبح التعبير عن الولاء للخلافة العباسيَّة بلا معنى ولا جدوى، غير أنَّ الوعي السياسيَّ والدينيَّ في ذلك الوقت أولى أهميةً كبيرة لهذه العلاقاتِ، وتلك الصلاتِ السطحيَّة[٩٧].

عَلاقة الأسرة الخلجيَّة بالخلفاء العباسيين بعد سقوط بغداد

احتفظ الخلجيون بتقاليد الخلافة المستمرة المتخيلة، ولكن بدلًا من محاولة الحصول على الشرعيَّة من الخلافة، نَصَّبُوا أنفسَهم خلفاءَ كما خصصوا لأنفسهم ألقابًا عديدة، ومنها «ناصر أمير المؤمنين». وكان جلال الدين الخلجي أول مَن ألغى اسم الخليفة من النقود، وجعل اسمه ولقبه مكان ذلك، ولدينا سَكة فضية سُكّت في دهلي عام (٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م)، تحمل العبارة «السلطان جلال الدنيا والدين فيروز شاه نصر أمير المؤمنين»، فقد اتخذ لنفسه لقب «أمير المؤمنين»[٩٨].

وسيرًا على النهج نفسه، نقش السلطان علاء الدين الخلجي على نقوده ومسكوكاته هذه العبارة «السلطان علاء الدنيا والدين أبو المظفر محمد شاه السلطان، إسكندر الثاني يمين الخلافة ناصر أمير المؤمنين. ضرب هذه السَّكة بحضرة دهلي في سنة تسع وسبعمائة[٩٩]. وكذلك، نقشَ هذه العبارة على أقواس منارة قطب في عام (٧١٠هـ/ ١٣١٠م)، وتقول العبارة: «حضرت عليا خدايكان سلاطين مصطفى جاه الضادع الأمر لله، المخصوص بعناية أكرم الأكرمين، علاء الدنيا والدين، غوث الإسلام والمسلمين، مُعز الملوك والسلاطين، القائم بتأييد الرحمن أبو المظفر محمد شاه السلطان إسكندر ثاني، يمين الخلافة، ناصر أمير المؤمنين، خلّد الله ملكه...»[١٠٠].

أمّا ابنه وخليفته قطب الدين مباركشاه الخلجي (٧١٦-٧٢٠هـ/ ١٣١٦-١٣٢٠م)، فأسقطَ التظاهرَ بالخلافة العباسيَّة، ونصَّب نفسَه الخليفة والإمام الأعظم، كما اتخذ لنفسه اسمًا رسميًّا هو «الخليفة الواثق بالله أمير المؤمنين»[١٠١]. ونقشَ هذه العبارة على نقوده المسكوكة فيما بين عامي (٧١٨-٧٢٠هـ/ ١٣١٨-١٣٢٠م): «الإمام الأعظم خليفة رب العالمين، قطب الدنيا والدين، أبو المظفر مباركشاه، السلطان ابن السلطان، الواثق بالله أمير المؤمنين». ضَرَبَ هذه السَّكة بقلعة قطب آباد في سنة ثماني عشر وسبعمائة[١٠٢]. كما نقشَ هذه العبارة في النقود المسكوكة في عامي (٧١٦-٧١٧هـ / ١٣١٦-١٣١٧م)، «السلطان الأعظم قطب الدنيا والدين أبو المظفر مباركشاه السلطان ابن السلطان، إسكندر الزمان يمين الخلافة ناصر أمير المؤمنين»[١٠٣]. كما سمّى مدينة دهلي بـ«بيت الخلافة ودار الخلافة»[١٠٤]. غير أنَّ السلطان غياث الدين تغلق أعاد الأمور إلى نصابها، بذِكر الخليفة العباسي -غير الموجود- في خطب الجمعة وفي النقود والنقوش إلخ[١٠٥].

وهكذا، تُرك الأمر لمحمد بن تغلق (٧٢٥-٧٥٢هـ/ ١٣٢٥-١٣٥١م) لكي يجعل لهذا الوضع غير المرضي معنًى ومفهومًا على أرض الواقع. وقد فعل ذلك باتخاذ خطواتٍ جريئة رغم

(لوحة ٩)

تنكة ذهبية ضَرَبَها السلطان محمد بن تغلق تحمل اسمَه واسم الخليفة العباسي المستكفي بالله. ويفيد النقش: «ضرب هذا الدينار/ الخليفية الدهلي/ في شهور سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، في زمان الإمام/ المستكفي بالله أمير المؤمنين/ أبو الربيع سليمان/ خلّد الله/ خلافته».

(لوحة ١٠)

تنكة ذهبية سُكّت على عهد السلطان فيروز شاه تغلق، وتحمل العبارة الآتية: «في زمان الإمام/ أمير المؤمنين أبي/ عبد الله/ خلدت / خلافته، السلطان الأعظم/ سيف أمير المؤمنين/ أبو المظفر فيروز شاه/ السلطاني خُلِّدت/ مملكته».

منطقيَّة الاعتراف بالسلالة العباسيَّة المنفيَّة، حيث انتقلت الأسرة العباسيَّة الحاكمة في بغداد إلى القاهرة، وعاش الخلفاء العباسيون تحت حماية سلطنة المماليك المصريَّة[١٠٦]. ومن خلال القيام بذلك وضع محمد بن تغلق ختمًا على برنامجه الفخم لتعزيز سلطته ومكانته السياسيَّة من خلال توسيع نطاق السيادة الإقليميَّة، وتعزيز الاتصالاتِ الدبلوماسيَّة البعديَّة، وإقامة الاحتفال العام الفخم في سبيل ذلك[١٠٧]. وفي سعيه للحصول على الشرعيَّة السياسيَّة لعله جاهدَ في التقليل من هيبة جيرانه الكبار والأقوياء، وتقليص مكانتهم السياسيَّة من مثل: الخان الثاني أبو سعيد الإيلخاني، والخان الچغتائي علاء الدين تارماشيرين خان، وغيرهم[١٠٨].

عَلاقة الأسرة التغلقيَّة بالخلفاء العباسيين في القاهرة

عندما ندرس حياة السلطان محمد بن تغلق من ناحية علاقته بالخلافة العباسيَّة في القاهرة، تظهر لنا فترتان مختلفتان: تمتد الفترة الأولى منذ بداية جلوسه على العرش إلى عام (٧٤١هـ/ ١٣٤٠م)، في حين تبدأ الفترة الثانية منذ هذا التاريخ المذكور إلى نهاية فترة حكمه. ونرى أنَّ السلطان في الفترة الأولى كاد يتجاهل الخلافة ورموزها تمامًا، في حين نجده يتوق إلى تقوية علاقته بالخلافة في الفترة الثانية وبكلِّ وسيلة ممكنة، وإنَّ التفاني الذي أبداه السلطان نحو الخلافة هو بالتأكيد غير مسبوق في تاريخ سلاطين الإسلام.

لا يوجد اسم الخليفة العباسيّ منقوشًا على نقود السلطان محمد ابن تغلق البتة، والتي سُكّت في الفترة الأولى من حكمه، وبدلًا من ذلك نُقشت أسماء الخلفاء الراشدين والآيات القرآنيَّة والأحاديث النبويَّة[١٠٩]، وتحمل بعض تلك النقود الآية القرآنيَّة ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾، والبعض الآخر نُقش عليها «محيي سنن خاتم النبيين»[١١٠]، وتحوي الأخرى كلمة «الملك والعزة لله» وغيرها[١١١]. وكانت النقود والمسكوكات التي سُكّت فيما بين السنوات (٧٣٠-٧٣١-٧٣٢هـ/ ١٣٢٩-١٣٣٠-١٣٣١م) في منطقة ديوگير، تحمل عبارةً منقوشة نصها: «مَن أطاع السلطان، فقد أطاع الرحمن»[١١٢]. وكذلك: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم»، و«لولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضًا»، وغيرها من الأقوال والآيات[١١٣]. ولعلَّ السلطان أراد القضاء على المعارضة العامة التي أثيرت بسبب قرار السلطان بتهجير الناس من دهلي إلى ديوگير، وذلك بتذكير الناس الواجباتِ الدينيَّة حيال السلطان، بيد أنَّ العملات التي سُكّت في تلك الفترة لم تحمل اسم الخليفة البتة[١١٤].

ومنذ الفترة الثانية للحكم التي بدأت منذ عام (٧٤١هـ/ ١٣٤٠م)، تغيَّرَت نظريات السلطان وآراؤه السياسيَّة والدينيَّة تغيرًا تامًّا، فنجد معظم عملات تلك الفترة تحمل اسم الخليفة فحسب، ولم يذكر اسم السلطان نفسه في أيِّ مكان في تلك العملات[١١٥]. والسؤال المطروح هنا: ما سبب ذلك التغيير المفاجئ في عقليَّة السلطان؟ يعتقد بعض المؤرخين أنه حينما اندلعت فوضى واضطراباتٌ في الأوساط الدينيَّة الإسلاميَّة، وبخاصة في أوساط العلماء والمشايخ، وتأثّر الناس بها وابتعدوا عن السلطان وندّدوا بسياساته الدينيَّة والسياسيَّة، وشَعَرَ محمد بن تغلق بأنَّ الرأي العام للشعب والعلماء وحتى الأمراء في دهلي ضده وضد سياسته، ما دفعه إلى التفكير الجدي باكتساب الشرعيَّة السياسيَّة والدينيَّة من الخليفة من أجل القضاء على مخالفة الدوائر الدينيَّة والعلميَّة ضده. ربما أراد استعمال ورقة التفويض بصفتها حيلة سياسيَّة، بيد أنَّ التفاصيل التي ذكرها مؤرخون وكُتاب معاصرون له يتضح منها إخلاصه الشديد وعقيدته الراسخة حيال علاقته بالخليفة[١١٦]. وقد كتب المؤرخ برني أنه قد استقرَّ في قلبه أنَّ السيادة والحكم لا تصحُّ دون الحصول على الشرعيَّة السياسيَّة من الخليفة وإذْنه، وأنَّ أيَّ ملك أو سلطان حكم أو سيحكم دون الحصول على إذْن الخلفاء العباسيين سيكون حكمه غير شرعيٍّ[١١٧]. وكتب مؤلف كتاب سيرة فيروز شاهي، بأنَّ هذا الرأي للسلطان ترسّخَ بسبب كثرة مطالعة الكتب الفقهيَّة والدينيَّة[١١٨]، في حين كتب صاحب كتاب تاريخ ألفي، كما جاء عند بعض الباحثين أنَّ معلمه قتلغ خان رسَّخ في ذهنه وقلبه بأنَّ الحكم لا يجوز دون الحصول على الشرعيَّة السياسيَّة من الخليفة[١١٩]. وكلام كلٍّ من برني وصاحب سيرة فيروز شاهي يتوافق تمامًا مع ما كتبه المؤرخ المصري الشجاعيُّ نقلًا عن خطاب السلطان محمد بن تغلق، الذي أرسله الأخير في السفارة الثانية حيث كتب الشجاعي قائلًا: وقد ذكر لنا -أي مما جاء في خطابه-، أن لا يتم له الحكم الشرعي إلا بولاية من الخليفة. ويسأل إحسانَ السلطان القلاوون أن يدع الخليفة يكتب له تقليدًا، ويقلده ساير أمور بلاده لتصح ولايته[١٢٠].

ومن العجيب، أنَّ السلطان محمد بن تغلق وجد صعوبةً بالغة في المعرفة بقيام الخلافة العباسيَّة في القاهرة، وذلك بعد الاستفسار المستمر من التجار والمسافرين والتدقيق معهم بشأن حقيقتهم[١٢١]. ووفقًا لبرني فإنه بايع الخليفة العباسي مع رجالاته وأركان دولته غيابيًّا، وأرسل العديد من الخطابات والرسائل إلى الخليفة. ولأنه كان في بعض الحملاتِ العسكريَّة، فحينما عاد منها إلى دهلي أوقفَ صلاة الجُمَع والعيدينِ إلى أنْ يتسلم ورقة التفويض من الخليفة في القاهرة، كما أمرَ بإزالة اسمه من العملات والنقوش[١٢٢].

ومن المفترض أن يكون محمد بن تغلق قد أرسل في تاريخ غير مدوّن سفارةً إلى القاهرة إلى الخليفة المستكفي الأول (٧٠١-٧٤٠هـ/ ١٣٠٢-١٣٤٠م)، سعيًا من وراء ذلك إلى الحصول على موافقة الخليفة على ذِكر اسمه في خُطب الجمعة والعيدين. ومن المفترض أنَّ السفارة التغليقيَّة قد وصلت إلى القاهرة على عهد المستكفي المذكور والواثق بالله (٧٤٠-٧٤١هـ/ ١٣٤٠-١٣٤١م). على أنَّ الخليفة الحاكم بأمر الله الثاني[١٢٣] (٧٤١-٧٥٣هـ/ ١٣٤١-١٣٥٢م) أول مَن أرسل مبعوثًا له، واسمه الحاج سعيد صرصري إلى دهلي عام (٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م) مع ورقة التفويض والخِلعة المرتقبة والألقاب السلطانيَّة الممنوحة لمحمد بن تغلق. وقد استقبل السلطانُ رسلَ الخليفة بحفاوة وإكرام بالغين. ووفقًا للمؤرخ الدرباري برني، فقد خرج السلطان وحاشيته من المدينة في استقبال المبعوث العباسيِّ والهدايا المرسلة من الخليفة في القاهرة. وفي أسلوبه المعتاد في تشويه سمعة محمد بن تغلق تناول برني تعاملاته مع العباسيين المصريين، والعناية بهم على وجه الازدراء والاستخفاف به[١٢٤]. ووفقًا لبرني، قطع السلطان مسافة كبيرة حافيَ القدمين لاستقبال السفارة العباسيَّة، ووضع المنشور والخِلعة على رأسه، وقبَّلَ قدَمَي الحاج صرصري مرارًا وتَكرارًا. وأقيمت القِباب في المدينة... وحينما ذُكر اسم الخليفة في خُطبة أول يوم جمعة، نُثرت أطباق من الدنانير والدراهم على الحشود. وبذلك التاريخ أذِنَ السلطان بإعادة إقامة صلوات الجمع والعيدين، وأمر أيضًا بعدم ذِكر أسماء أولئك السلاطين الذين لم تُذكر أسماؤهم في ورقة المنشور الصادر عن الخليفة، أو الذين لم يتمكنوا من الحصول على المنشور من الخليفة على عهودهم[١٢٥].

وقد أرسل السلطان محمد بن تغلق سفارةً أخرى إلى القاهرة في العام نفسه، عادت مع ورقة التفويض الأخرى لتقوية شرعيته لحكم الهند كلها. ووفقًا لبرني فإنَّ السلطان بعد وصول الحاج صرصري أمر بكتابة التماس مطوّل عبّر فيه عن تواضعه وانكساره الشديديْن، ثم اختار بعض الجواهر الثمينة التي لم تكن لها مثيل في خزانته هديةً للخليفة في القاهرة[١٢٦]. وقد بلغ اعتقاده في الخليفة مبلغًا عظيمًا لدرجة أنه لولا الخوف من خطر القرصنة وقطاع الطرق لأرسل كلّ خزائن دهلي إلى مصر! وبعث السلطانُ بذاك الالتماس وبتلك الهدايا مع مبعوثه الحاج رجب البرقعي إلى مصر[١٢٧]. ووفقًا لبرني، فقد أرسل الخليفة بعد عامَيْن شيخ الشيوخ بديار مصر الذي وصل في معيَّة الحاج برقعي إلى دهلي، حاملًا المنشور والخِلعة الخاصة والصولجان[١٢٨]. ووفقًا لبرني أيضًا، فقد بالغ السلطان في الاستقبال والتعظيم والإكرام لرسل الخليفة. «ولو أردت كتابة بعض الأجزاء من تلك الإكراميَّة ومظاهر الاستقبال والاحتفال، لاحتجتُ إلى تأليف كتاب كامل من أجل بيان ذلك». ووُضع منشور الخليفة في الدربار، وأخذ السلطان البيعة الخاصة والعامة بالقرآن، كما وضع كتاب «مَشَارِقُ الأَنوارِ النَّبويَّةِ مِن صِحَاحِ الأَخبارِ المُصْطَفيَّة» للعلَّامة الحسن ابن محمد بن الحسن الصغاني (المتوفى ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م) بجانب المصحف الشريف، وطلب منهم كتابة العهد والميثاق لأمير المؤمنين. وأرسلَ السلطانُ في معية تلك السفارة أموالًا وهدايا غالية كثيرة ومتنوعة. وتبع السلطان بإرسال الأموال والهدايا إلى الخليفة في القاهرة عن طريق نهرواله وكنبهايت الواقعتيْن على السواحل الغربيَّة للمحيط الهنديِّ[١٢٩].

وكلام برني يتوافق تمامًا مع ابن بطوطة، الذي كتب أنَّ السلطان محمد بن تغلق قد بعث هديَّة إلى الخليفة بديار مصر أبي العباس، وطلب منه أنْ يبعث له أمر التقدمة على بلاد الهند والسند اعتقادًا منه في الخلافة، فبعث إليه الخليفة أبو العباس ما طلبه مع شيخ الشيوخ بديار مصر ركن الدين، فلما قَدِمَ عليه، بالَغ في إكرامه، وأعطاه عطاءً جَزْلًا، وكان يقوم له متى دخل عليه ويعظّمه، ثُمّ صرفه وأعطاه أموالًا طائلة. وفي جملة ما أعطاه جملةٌ من صفائح الخيل ومساميرها، كلّ ذلك من الذهب الخالص[١٣٠].

وعلى كلِّ حال، لدى وصول تلك السفارة، أُقيم الاحتفال الكبير، وقرضَ الشاعر الدرباري التغلقي بدر الدين چاچ العديدَ من القصائد أشاد فيها إشادةً كبيرةً تأكيدًا لذِكر مكانة السلطان محمد بن تغلق، وأوج حكمه وذروته، مما دفع الخليفة إلى إرسال تلك الخِلعة الخاصة. وقد وضع الشاعر قصائدَ عديدة بعناوين مختلفة[١٣١]. وإنه لمن الصعب أنْ نأتي بترجمة كلِّ تلك القصائد، غير أنه يمكننا أنْ نقتبس مضامين بعض تلك القصائد من أجل التعبير عن جوّ الإعجاب والتقدير الكامل والمدح المبالَغ فيه. ولعلَّ من المناسب أنْ نذكر هنا أيضًا أنَّ تلك الأبيات الشعريَّة المتكلّفة، والمحشوة بالمبالغات والمحسنات البديعيَّة وبعض التشبيهات تتعارض مع أصول الدين والعقيدة الإسلاميَّة تعارُضًا مباشرًا، ومن الصعب قبولها إلا أنه -وَفْقًا لمتطلبات البحث والتحقيق- لا بأسَ من ذكر البعض منها.

وقد عبَّر الشاعر عن وصول ورقة التفويض والخِلعة في كلماتٍ مفادها: أنَّ وصول الخِلعة وورقة التفويض من الخليفة مثل تلك الرسالة التي أتى بها سيدنا جبريلُ من السماء إلى الأرض، ومثلما فعل عند نقل الآياتِ القرآنيَّة والوحي إلى النبيِّ محمد ﷺ. ثُمَّ استطرد قائلًا: إنَّ صدور هذا المرسوم وتلك الخِلعة من جانب الخليفة للسلطان محمد بن تغلق يشبه استجابةَ دعاء

سيدنا سليمان عليه السلام ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِيٓ﴾ لتفويضه حُكم السمواتِ والأرض، ووصول الزبور المختوم من جانب داود عليه السلام إليه. لقد بارك الإمامُ (أمير المؤمنين) السلطانَ محمد بن تغلق بإذنه بحكم العالم كله، وقد وصل هذا الخبر إلى جميع السلاطين في الأقاليم السبعة، فيحترق الحسود منهم في نار حسدهم وغيرتهم، ويضعون الغَبرة على وجوههم بأنَّ الخضر وصل إلى ينبوع الحياة أخيرًا. ومع وصول الخِلعة والثوب العباسيِّ ازدادت سيادة السلطان وتوسَّع نفوذه ما جعل منزلته ومكانته وطموحاته تتضاعف عن ذي قبل. وقد أصدر الخليفة أمير المؤمنين مرسومًا يفيد ويؤكد فيه أن يذكر أهلُ الأقاليم السبعة اسمَ السلطان في خُطب الجمعة على أنه إمبراطور للإسلام والمسلمين.

وبعد وصف مشهد الاستقبال، وإعادة صياغة ورقة التفويض بالتصنع والتكلف، أضاف الشاعر قائلًا فيما معناه: لقد أرسل الإمام خِلعة سوداء مثل قرة العين، ومن شأنها أنْ تضيء نور الشريعة في القلوب، وخوفًا من عدالة السلطان يرعى الأُسود والغزلان في مرعى واحد، ويشربون الماء من مشرعة واحدة. ولتذرف عيون أعدائكم دماءً من الحسد والبغض. وعندما زين السلطان تلك الخِلعة الفخمة نهارًا، شعرَ الناس أنَّ البدر قد طلع عليهم بكلِّ رونقه وروعته في وقت النهار.

ثم قدَّم الشاعر -وذلك باستعمال رموز وإيماءات بليغة للغاية- بيانًا ممتعًا عن كيفيَّة احتراق الحُسّاد من داخلهم، فيقول: رأيت حُساد السلطان وحالتهم الحزينة والبائسة، فقد صارت حالتهم المبعثرة أكثر تشابكًا وتناثرًا من گيسوئ پريشان للمعشوق. ومع أنَّ قطرتيْن من يد السلطان تحوِّلان جفاف الأنهار الخمسة إلى النداوة والرطوبة والمياه المتدفقة، إلا أنَّ مياه هذه الأنهار الخمسة لا تستطيع بلَّ حُلوق أولئك الحاسدين والحاقدين الجافة. ثم تكلّم عن فضل السلطان وإحسانه وعطاياه، فقال: «إنَّ الأنهار نفسَها تستحي من كثرة فيض السلطان وإحسانه وأفضاله. ومبعث كلماتي الطيبة هو عبوديتي، وإذا جعل السلطان اسمه «فخر الزمان» فسيكون ذلك مصدرَ فخر للزمن وإعزازه واحترامه وتقديره»[١٣٢].

ووَفقًا لبعض المؤرخين، سُرَّ السلطان كثيرًا بالحصول على المنشور وورقة التفويض من الخليفة، وعبّر عن ذلك بإنشاء مدينة كاملة سمّاها خرم آباد (أيْ: مدينة السعادة) تخليدًا لذكرى ذلك الحدث[١٣٣]. ويتضح من مقالات برني أنَّ البعثاتِ المتبادلة استمرَّت بين الطرفين، وتسلَّم السلطان محمد بن تغلق منشوراتٍ وخلعاتٍ من الخليفة العباسيِّ مراتٍ عديدة[١٣٤]. فكتب أنه وصلت سفارة من جانب الخليفة مرتين غير تلك السفارات التي ذكرتها سلفًا، وذلك عن طريق مدينة كنبهايت وبهروچ الساحليَّة في گجرات. بيد أنَّ المبالغة في حبه وعقيدته في الخلافة والخلفاء أثارت دهشة المؤرخ برني إثارة كبيرة، وعبَّر أكثر من مرة عن تعجُّبه من سلوك السلطان حيال رسل الخليفة، وانتقد بشدة سياسته الخارجيَّة، لأنها تسببت في استنزافٍ كبير للخزانة الملكيَّة، وكتب قائلًا: وكان السلطان يبالغ في مظاهر الكرم والضيافة لمبعوثي الخليفة كلَّ مرة، ولا يناسب السلطان العظيم الموصوف بالعقل والفطنة والحكمة أنْ يُفرِط في مثل هذا العطاء والسخاء، ويرسل كلَّ هذه الأموال والهدايا الغالية إلى خارج الهند. وكذلك لا ينبغي له أنْ يُقدِّم نفسه أمام مبعوثي الخلفاء بهذا التواضع الشديد وبذلك الانكسار الذليل، فإنَّ العبيد أنفسهم لا يفعلون مثل ذلك لماليكهم ومعبودهم»[١٣٥].

يشهد الكتّاب المعاصرون لعهد السلطان محمد بن تغلق على روعة بلاطه وآدابه السلطانيَّة. وسواء كان السلطان بالغ في احترام رسل الخليفة حبًّا فيه وإخلاصًا إليه، أمْ فعل ذلك من أجل تحقيق الغاية السياسيَّة، فإنَّ ابن بطوطة يُقدِّم لنا تلك المشاهد الراقية لبلاط السلطان وآدابه، ويروي لنا قصةً مثيرة للاهتمام، بيد أنه من المحال أنْ نحدد تاريخها الآن.

حدثت هذه القصة عند قدوم أحد أبناء الخليفة العباسيِّ إلى دهلي على عهد السلطان محمد بن تغلق، وقد ساق ابن بطوطة هذه القصة مفصلة في مذكراته، فكتب أنَّ الأمير غياث الدين محمد بن عبد القاهر بن يوسف بن عبد العزيز ابن الخليفة المستنصر بالله العباسيِّ، قد وفد على السلطان علاء الدين ملك بلاد ما وراء النهر، فأكرمه واستوطن بها أعوامًا، ثم لما سمِع بمحبة السلطان محمد بن تغلق في بني العباس، وقيامه بدعوتهم، أحبَّ القدوم عليه، وبعث له بِرَسولين. وكان ناصر الدين الترمذيُّ قد لقي غياث الدين ببغداد، وشهد لديه البغداديون بصحة نسبِه، فشهد هو عند السلطان محمد بن تغلق بذلك[١٣٦].

والكلام لا يزال لابن بطوطة، يقول: فلما وصل رسولاه إلى السلطان، أعطاهما خمسة آلاف دينار، وبعث معهما بثلاثين ألف دينار إلى غياث الدين للتزوّد بها إليه، وكتب له خطابًا بخط يده يعظّمه فيه، ويسأل منه القدوم عليه. فلما وصله الكتاب رحل إليه، وطلب السلطان ولاة السند والملتان والپنجاب أنْ يستقبلوه استقبالًا حارًّا عند وصوله إلى كلِّ محطة، وفي معيَّة العلماء والفقهاء ورجال الدولة، فلما نزل بمسعود آباد بالقرب من دهلي، خرج السلطان بنفسه لاستقباله. وكان الأمير قد استصحب هدية في جملتها ثياب، فأخذ السلطان أحد الأثواب، وجعله على كتفه، وخدَّمَ كما يفعل الناس معه، ثم قُدمت الخيل،

فأخذ السلطان أحدَها بيده وقدَّمه له، وحلف أنْ يركب، وأمسك بركابه حتى ركب، ثم ركب السلطان وسايره في مظلة واحدة[١٣٧].

وأكثر ما أدهش ابنَ بطوطة الذي لم يرَ السلطان يفعل شيئًا كهذا من قبل، هو أنه قدَّم للأمير التَّنْبُول بيده، فكتب يقول: وأخذ التَّنْبُولَ بيده وأعطاه إياه، وهذا أعظم ما أكرمه به. فإنه لا يفعله مع أحد. وقال له: لولا أني بايعتُ الخليفة أبا العباس لبايعتك. فقال له غِياث الدين: وأنا أيضًا على تلك البيعة. وقد بالغ السلطان في إكرامه والإنعام عليه، واحتفى به وطلب من أركان الدولة الاحتفاءَ به، وخصصَ له قصرًا كاملًا وشاملًا. ووفقًا لابن بطوطة، أمره أن لا ينزل عن دابته إذا أتى دار السلطان إلّا موضعًا خاصًّا لا يدخله أحدٌ راكبًا سوى السلطان، وأمر الناس جميعًا من كبير وصغير أنْ يخدموا له كما يخدمون السلطان. وإذا دخل على السلطان ينزل له عن سريره، وإنْ كان على الكرسيِّ قام قائمًا، وكان يجلس مع السلطان على بِساط واحد، وإذا انصرف إلى خارج المجلس جعل له بساط يقعد عليه ما شاء، ثُم ينصرف، يفعل هذا مرتين في اليوم[١٣٨].

ويتضح من كلام الرّحالة ابن بطوطة، أنَّ السلطان بعدما بايع الخليفة أبا العباس العباسيّ، ألغى العديد من الضرائب والمغارم، وأمر أنْ لا يُؤخذ من الناس غير الزكاة والعُشر، ووَفقًا لقوله فإنه كانت العادة المتبعة لدى الإدارات المحلية أنْ يأخذوا الرُّبع من كلِّ ما يجلبه التجار، وأنْ يأخذوا على كلِّ فرس سبعة دنانير مغرمًا[١٣٩]. وكتب ابنُ بطوطة في موضع آخر أنَّ السلطان أمر برفع المكوس عن بلاده، وأنْ لا يؤخذ من الناس إلا الزكاة والعُشر[١٤٠].

والسؤال المطروح الآن هو: هل مهَّدَت تلك العلاقاتُ الدبلوماسيَّة بين الخلفاء العباسيين في القاهرة وسلاطين دهلي طرقًا لتقوية العلاقاتِ السياسيَّة والتجاريَّة بين سلطنة دهلي والدولة المملوكيَّة في مصر؟ أم هل أرسل محمد بن تغلق سفارة خاصة إلى السلاطين المماليك في القاهرة لتحقيق تلك الغاياتِ؟ لقد أرسل السلطانُ محمد بن تغلق سفارة خاصة إلى السلطان المملوكيّ، بيد أننا لا نعرف على وجه الدقة سببَ إرسال تلك السفارة، غير أنَّ بعض الباحثين كتبوا أنَّ السلطان محمد بن تغلق انتهز فرصة العداء القائم بين المماليك ومغول فارس، وأرسل سنة (٧٣١هـ/ ١٣٣١م) سفارة سِريَّة إلى الناصر محمد بن قلاوون، عن طريق الخليج الفارسيِّ (العراق)؛ تفاديًا لتعرُّض السلطاتِ اليمنيَّة لها. ورغم أنَّ المصادر لم تُشِر إلى أسباب تلك السفارة وما أسفرَت عنه من نتائج، إلا أنها قد تكون من أجل التحالف مع المماليك ضد إيلخانات فارس، والقيام بعمل عسكريٍّ مشترك للقضاء على دولتهم، غير أنَّ ذلك جاء في فترة كانت العلاقاتُ فيها بين المماليك والدولة الإيلخانيَّة قد تحسنَت[١٤١].

ويتضح من خطاب السلطان محمد بن تغلق، أنَّ علاقته بالدولة الإيلخانيَّة كانت طيبة، وتُبُودِلت سفاراتٌ وهدايا قيمة بين الطرفين، إنما يؤكد ذلك الخطاب على وجود العداوة الشديدة بين الدولة التغلقيَّة والخانات الچغتاييين الحاكمين في منطقة أفغانستان وآسيا الوسطى وما حولها. لقد أرسل السلطانُ محمد بن تغلق مبعوثيه بخطاب وهدايا قيّمة في عام (٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م) إلى بلاط أبي سعيد بهادر خان[١٤٢]، ويُذكّره في خطابه أولًا بوجود صداقة وعلاقة طيبة بين الهند وإيران منذ عهود أسلافهما، ثم يشير إلى واجب الحكام المسلمين حيالَ قضيَّة الإسلام والمسلمين. وكتب فيه: أنَّ الكفار استولوا على خراسان وتوغّلوا في ولاية السند التي كانت جزءًا لا يتجزأ من الهند، ووَفْقًا لقوله في ذلك الخطاب، فإنَّ كلَّ هذا حدث لأنَّ السلاطين السابقين كانوا حكامًا غير أكفاء، ولم يحاول أيٌّ منهم القضاءَ على الكفر والكفار وطرْدَهم حتى اليوم. كما جاء في خطابه، أنَّ سكان منطقة السند ليسوا في مأمنٍ من بطشهم وطغيانهم، وما زالوا يعانون من خسائر جسديَّة وماديَّة وروحيَّة على أيديهم. علاوةً على ذلك، تابَع السلطان في ذلك الخطاب، بأنه اتخذ قراره بإنقاذ شعبه من اضطهادهم، كما يناشد أبا سعيد باسم الإسلام أنْ يتكاتف معه لتدمير قوة الچغتاييين والقضاء عليهم في خراسان، ويؤكد له أيضًا نجاح جيوشهما. ويقترح عليه أنه يجب عليهم أنْ يتعاضدوا بعضهم مع بعض لطرد أعداء الإسلام عبر نهر أوكسوس، حتى ينعَم المسلمون بالأمن والسلام، وتُطبق الشريعة الإسلاميَّة في هذه المناطق الإسلاميَّة. ويحتوي ذلك الخطاب أيضًا على إشاراتٍ تفيد بوجود الصعوباتِ والعراقيل التي تواجهها قوافل التجار والحجاج في طريقهم إلى مكة عبر الطرق البريَّة، بسبب سيطرة الكفار على تلك الطرق (عبر خراسان). وفي نهاية المطاف، يقول السلطان: إنه بعث ذلك الخطاب مع مبعوثه بكلِّ إخلاص، وبهدف تعزيز العلاقاتِ والصداقة معه (أيْ: أبي سعيد). وكذلك نقل مبعوثه معلومات مهمة أخرى غير واردة في الرسالة شفويًّا إلى السلطان أبي سعيد. والتاريخ المدون في ذلك الخطاب هو (٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م)[١٤٣].

وفي الواقع، كان محمد بن تغلق يسعى إلى الحصول على صداقة الدول الإيرانيَّة والمملوكيَّة والخلافة في القاهرة فيما وراء البحار، ولكنَّ ذلك لا يعني قبول التبعيَّة السياسيَّة أيًّا كان نوعها. ولكنَّ إرسال تلك البعثة إلى مصر المملوكيَّة لم تُسفر عن تأليف حِلف سياسيٍّ أو عسكريٍّ، أو عقْد معاهدةِ تحالفٍ بين الطرفين ضد المنغول الچغتاييين.

وهكذا، شهد عهد محمد بن تغلق أقصى درجة من التفصيل للتقاليد القديمة، لإضفاء الشرعيَّة عن طريق الاعتراف بالخلافة والخلفاء العباسيين وأفراد أسرتهم، حتى ولو لم تعُدْ لها أيُّ هيبة سياسيَّة ودينيَّة، واستغلال المناسبات والاحتفالات ومنح الهدايا والخِلَع لتعزيز الممارسة اليوميَّة للسلطة. كما شهِدت دهلي في عهده أوجَ قوتها وذروتها في العلاقاتِ السياسيَّة والدبلوماسيَّة بمصر وبالدول الأخرى، وقد قويَت تلك العلاقاتُ الدبلوماسيَّة على عهد خليفته السلطان فيروز شاه تغلق (٧٥٠-٧٩٠هـ/ ١٣٥١-١٣٨٨م)[١٤٤].

فقد تلقّى السلطان (فيروز شاه) مرتيْن (منشور) تفويضٍ بالحكم من الخليفة العباسيِّ في مصر، فقد جاء المنشور لأول مرة من جانب أبي الفتح أبي بكر المعتضد بالله الأول ابن المستكفي (المتوفى ٧٦٣هـ/ ١٣٦١م)، الذي لقَّب السلطان فيروز بـ«سيف الخلافة» و«قاسم أمير المؤمنين»، وذلك في عام (٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م). وفي عام (٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م) اكتسب السلطان فيروز شاه ورقةَ الصفة الشرعيَّة بالحكم من الخليفة المتوكل على الله الأول أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعتضد بالله (المتوفى ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) الذي لقَّبه بـ«سيد السلاطين»، من أجل إضفاء الشرعيَّة الدينيَّة على ضعفِه السياسيِّ، وتقوية حكمه بصفته الوالي للخليفة العباسيِّ في شبه القارة الهنديَّة كلها[١٤٥].

ويتبيَّن من مقالاتِ فيروز شاه، أنه كان يعتقد اعتقادًا جازمًا بأنَّ سُلطته ستكون غير شرعيَّة ما لم يذعن للخلافة العباسيَّة، وينال التَّفويض والتَّأييد من الخليفة العباسيِّ حتى ولو كان شكليًّا[١٤٦]. ويتضح من ذلك ترسيخ مكانة الخلافة العباسيَّة في نفوس السلاطين التغلقيّين، وسعيهم لكسْب ودِّ الخلافة في القاهرة، فضلًا عن تقديرها لجهودهم بإرسال الهدايا والألقاب إليهم. ولا يمكن استبعادُ وجهة النظر القائلة بأنَّ السلطان فيروز شاه كان بحاجة إلى المنشور والخِلعة من الخليفة لتقوية مكانته السياسيَّة في الهند، ولا سيما أنَّ محمد بن علاء الدين البهمني حاكمَ الإمارة البهمنيَّة الإسلاميَّة في جنوب الهند قد حصل على الخِلعة والمنشور من الخليفة العباسيِّ نفسه، ومن ثَمَّ كان فيروز شاه حريصًا على استرداد مكانته السياسيَّة وتقويتها في الهند[١٤٧].

كتب عفيف، أنَّ السُّلطان (فيروز شاه) لم يطلب ذلك، إنَّما أرسلها الخليفة عن طيب خاطر، وأرسل له ثلاث خِلعات: أحدها للسلطان فيروز، وثانيها للأمير فتح خان، وثالثها لوزيره خان جهان. وأمر السلطان فيروز شاه بتلك المناسبة بإقامة الاحتفال العام وتوزيع الأموال والهدايا على الخاصّ والعامّ[١٤٨]. في حين بالَغ برني في أهميَّة وصول تلك الخِلعة والشرعيَّة السِّياسيَّة، وكتب أنه أرسلها مرتيْن. ويبدو من كلامه أنَّ السلطان فيروز شاه طلب إعلان عن وصول السفارة والخِلعة من الخليفة العباسيِّ في مساجد دهلي، فقد زاد عدد المصلين في أيام الجمعة والعيدين بعد وصول الصفة الشرعيَّة والخِلعة من الخليفة، وَفقًا لبرني[١٤٩]. ووفقًا لبعض الباحثين، فإنَّ السفاراتِ المماثلة من مصر وصلتْ إلى دهلي في عهده فيما بين عامي (٧٦٦-٧٧٧هـ/ ١٣٦٤-١٣٦٥م)، بيد أنَّ سيرة فيروز شاهي تفيدنا بأنَّ السفاراتِ من جانب الخليفة العباسيِّ تعاقبَت كلَّ عام بعد ذلك[١٥٠].

حملَت نقود السلطان فيروز شاه تغلق اسمَ الخليفة الحاكم، وبعد وفاة الأخير أسماءَ خلفائه ومنهم المعتضد والمتوكل[١٥١]. وواصل خلفاؤه من السلاطين التغلقيين تلك الممارسة، واحتفظوا باسم المتوكل بعد وفاة الأخير، وعلى الأرجح لأنه مع تفكُّك حكم الأسرة التغلقيَّة انقطعَت جميع الاتصالات مع مصر، ولم يعُد أحدٌ يهتم بمعرفة مصير الخلفاء العباسيين في القاهرة[١٥٢]. ومن ثَمَّ، أعاد كلٌّ من السلطان مبارك شاه الثاني، ومحمد شاه الرابع، وعالم شاه وبهلول لودي أدراج الصيغةَ القديمة للخليفة، ألا وهي: «ناصر أمير المؤمنين»، غير أنَّ استعمال ذلك اللقب لم يتعدَّ كونه تقديسًا للتقاليد القديمة[١٥٣]. وهكذا، يتضح مما سبق أنَّ تقاليد توثيق العلاقاتِ بالخلافة العباسيَّة انتقلَت إلى سلطنة دهلي عبر الدولة الغزنويَّة والغوريَّة، وشَهِدَت أَوْجَها في ظلِّ الأسرة التغلقية، وظلت باقيةً في معظم الأسر الحاكمة الهنديَّة الإسلاميَّة المعاصرة واللاحقة، وخاصة البلاط المغولي الذي حاول الاحتفاظ بالصلاتِ الدبلوماسيَّة بالخلافة العثمانيَّة.

الخاتمة والنتائج

حاولت الورقة تتبُّع التطوراتِ في عَلاقاتِ سلاطين دهلي بالخلافة العباسيَّة في بغداد وفي القاهرة، وناقشَت السياساتِ الخارجيَّة لسلاطين دهلي ودبلوماسيتها، مع التركيز الخاصِّ على عَلاقة كلٍّ من السلطان إيلتتمش ومحمد بن تغلق وفيروز شاه تغلق بالخلفاء العباسيين. ولأنَّ عهد كلٍّ من جلال الدين الخلجي وغِياث الدين تغلق قصيران نسبيًّا، ومع انشغالهما بتأسيس سلالتهما في الهند، وناضالهما بشدة من أجل توفير الأمن والنظام الصارم خلال مدة حكمهما -لم يُبديا أيَّ اهتمام بالشؤون الخارجيَّة، سواء تقوية العلاقات بالخلافة، أمْ القُوى الأخرى في آسيا الوسطى وبالمنغول وبالمماليك في مصر، وآل رسول في اليمن.

وقد تبيَّن لنا أن معظم السلاطين المسلمين المستقلين في فارس وآسيا الوسطى، مِن مثل الدولة الغزنويَّة والغوريَّة وغيرهما اهتمّوا منذ تأسيس دولتهم بالارتباط بالخلافة

العباسيَّة ارتباطًا وثيقًا. وذلك لأنَّ هذا الارتباط، وذلك الولاء أعطاهم مكانةً سياسيَّة ودينيَّة في العالم الإسلاميِّ، كما أنه استوفى شكلياتِ العُرف الإسلاميِّ إلى حدٍّ كبير. علاوةً على ذلك، فإنَّ إدراج اسم الخليفة في خُطب الجمع والعيدينِ ونَقْشَه على النقود جعل أولئك السلاطين والملوك مرغوبين ومحبوبين لدى رعاياهم المسلمين. ومن جهةٍ أخرى، أفاد الخلفاء العباسيون من اعتراف أولئك السلاطين بهم إفادةً ماديَّة ومعنويَّة، حيث زادت بذلك هيبتُهم وثرواتُهم المتمثلة في الهدايا والتحف التي كان أولئك السلاطين يرسلونها إليهم بسخاء. إذًا، كانت الفوائد الماديَّة والمعنويَّة لذلك التحالف هائلةً؛ ومن ثَمَّ، حافظ كلا الطرفيْن على ذلك الارتباط والاتصال.

إذًا، كانت مؤسسة الخلافة العباسيَّة مع ضعفِها وهوانها تحظى من الناحية الدينيَّة والروحيَّة بمكانة خاصة لدى سلاطين الدول والإماراتِ الإسلاميَّة، ولأنَّ معظم أولئك السلاطين وصلوا إلى الحكم بالقوة والغصب، فقد سعوا إلى إضفاء الشرعيَّة السياسيَّة على حكمهم، ووجدوا بُغيتهم عند الخلفاء العباسيين الذين اعترفوا بهم ومنحوهم ورقةَ التفويض، من أجل تثبيتهم في مراكزهم وعلى البلاد التي كانوا يحكمونها[١٥٤].

وقد تمكَّن السلطان إيلتتمش من خلال الحصول على ورقة التفويض والإذْن، من دَحْرِ أعدائه، وترسيخ أركان سلطته حاكمًا على دهلي وما حولها. بيد أنه من الصعب تأييد آراء بعض الباحثين القائلة بأنَّ الحصول على ورقة التفويض للحكم من الخليفة المستنصر بالله، جعل السلطانُ إيلتتمش سلطنةَ دهلي تتبعَ الخلافة العباسية تبعيَّة مباشرة[١٥٥]. وكذلك من الصعب قبول رأي الباحثين الآخرين، ومفاده: أنه ما كان يمكن لأيّ منطقة أنْ تكون مستقلة وَفقًا للقانون والشرع ما دامت اعترفت بالخلافة، وحتى حكام الدول والإماراتِ الذين كان الخلفاء يعتمدون عليهم سياسيًّا وعسكريًّا، يخضعون له في الأساس حسب العُرف والقانون الإسلاميِّ، فالخليفة هو صاحب السيادة والكلمة العليا بحكم القانون، ولا يمكن لأحدٍ أنْ يحكم دون موافقته أو الحصول على ورقة التفويض منه[١٥٦]. وقد أيَّد العديدُ من الباحثين والمؤرخين[١٥٧] تلك الآراء المذكورة آنفًا، غير أنَّ التقييم العام لما جاء في الصفحاتِ السابقة من المناقشات يكشف أنَّ سلاطين دهلي الأوائل استعملوا اسمَ الخليفة فقط باعتباره تعويذةً أو تميمةً لتحقيق أهدافهم السياسيَّة والدينيَّة الخاصة، وفي دائرتهم الخاصة الضيقة. وتثبت نقودهم إثباتًا تامًّا على الاستعمال التقليديِّ لأسماء الخلفاء العباسيين وألقابهم. ولم يكن الهدف من وضْع اسم الخليفة غير الموجود على نقود السلطان ناصر الدين محمود وخلفائه سوى المحافظة على الوضع القائم لتلك النقود التي تعددت حالاتها. ويمكن توضيح ذلك بأنَّ الخليفة العباسيَّ لم يعُد مصدرًا أساسًا للحصول على الشرعيَّة السياسيَّة الحقيقيَّة لسلاطين دهلي، ويمكن لنا ضرب بعض الأمثلة هنا لمزيد من التأكيد.

لم يتردد السلطانُ إيلتتمش بعد الحصول على ورقة التفويض من الخليفة في مهاجمة غِياث الدين حاكمِ البنگال وإخضاعه، الذي حصل هو أيضًا على تلك الورقة والخِلعة من الخليفة[١٥٨]. وفي الحقيقة فقد اتخذ إيلتتمش السياسةَ نفسَها التي سار عليها أسياده من السلاطين الغوريين والغزنويين. ومن عجائب القدر أنَّ هلاكو هو مَن دمَّر بغداد والخلافة العباسيَّة في بغداد، وقتل الخليفة في عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، وعندما أرسلَ سفارةً إلى دهلي عام (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، استقبلها السلطانُ ناصر الدين محمود استقبالًا حارًّا، وكانت نقوده لا تزال تحمل اسم الخليفة المقتول المستعصم![١٥٩]. وتُظهر هذه الوقائع والأحداث تمامًا أنَّ سلاطين دهلي الأوائل أعطوا أهمية قصوى لتحقيق أهدافهم السياسيَّة على حساب المشاعر الدينيَّة، وأنَّ تلقيب أنفسهم بيمين الخلافة وناصر أمير المؤمنين، إنما فعلوه من أجل إحياء ذكرى الماضي المجيد للحُكام الأتراك عندما كانت الخلافة تعتمد عليهم للحصول على الدعم السياسيِّ والعسكريِّ. ومن ثَمَّ، لم يكن إعلان سلاطين دهلي الأوائل بأيِّ حال من الأحوال اعترافًا بالخليفة باعتباره رأسَ النبع لشرعيَّة سلاطين دهلي وسلطتهم السياسيَّة. وخلاصة القول، إنَّ الولاء الخارجيَّ للخليفة وتبعيته منحَ قوة أخلاقيَّة وشرعيَّة لترسيخ سلطتهم السياسيَّة.

ركَّز السلطان محمد بن تغلق تركيزًا كبيرًا على الجانب الشرعيِّ في علاقته بمنظومة الخلافة الإسلاميَّة. وكانت آراؤه عن الخلافة تطورت نتيجةَ مطالعته الشخصيَّة المكثفة للكتب الشرعية والفقه، وتأثير العلماء والفقهاء القادمين من الدول العربية والإسلامية. ولعله قد استغلَّ في مرحلةٍ ما مفهومَ الخلافة وشرعيتها الدينيَّة لدعم موقفه ضد الاستياء من إجراءاته السياسيَّة، فقد كان مخلصًا إلى حدٍّ كبير في تقرُّبه من مؤسسة الخلافة وتقوية عَلاقته بها. ووَفْقًا لابن بطوطة، كانت صلته بها تستند في الدرجة الأولى إلى عقيدته وأفكاره الدينيَّة. ويتضح مما سبق أنَّ ما فعله السلطان محمد بن تغلق من تقوية عَلاقته بالخلافة العباسيَّة، واهتمامه الشديد بإرسال البعثات والهدايا إليها، إنما كان من باب الحب والاحترام والعقيدة الدينيَّة في مسألة الخلافة فحسب. ولو نظرنا في قوته وشكيمته ومكانته السياسيَّة في الهند نظرًا دقيقًا لعرفنا أنه لم يكن بحاجة أصلًا لتلك المنشورات من الخلافة من أجل قمع الثورات، أو تقوية سلطته السياسيَّة والدينيَّة.

وقال بعض الباحثين، إنَّ التعبير عن الحب والإخلاص والوفاء لشخص لم يعُد له وجود على أرض الواقع والارتباط بالنظام الذي انهار منذ زمن بعيد -لا ريبَ يدلُّ بجلاءٍ على مدى ارتباط المسلمين الصادق بمفهوم الخلافة والخلفاء وأهميتهما الدينيَّة لديهم، غير أنَّ الجانب الآخر المتعلق بتجاهل الواقع والتغاضي عنه المكنون في ذاك الارتباط والمحبة مثالٌ سيئ للغاية للجمود والركود في مسيرة الفكر الدينيِّ والسياسيِّ الذي كان يسيطر على عقول المسلمين الهنود وفِكرهم إبّان تلك الحِقبة التاريخيَّة[١٦٠].

ومع أن خطابات سلاطين دهلي المرسلة إلى الخليفة أو تلك التي أرسلها الخلفاء العباسيون إليهم في حكم المفقود، وكذلك لا نجد مضامينها في حوليات سلاطين دهلي، وأقصى ما وَصَلنا منها بعضُ الخطابات التي أنشأها بعضُ كتاب ديوان الإنشاء في مصر التي جُمعت في مصنفاتهم، فعلى سبيل المثال أنشأ المنشئ تقي الدين محمد بن حجة إحدى أوراق التفويض أو كتاب العهد والتقليد عن الخليفة المستعين بالله أبي الفضل العباس[١٦١] لسلطان مظفر شاه الأول (٨٠٦-٨١٣هـ/ ١٤٠٤-١٤١١م) سلطان گجرات، وذلك في (شهر شوال ٨١٣هـ/ الموافق فبراير ١٤١١م) بدمشق. وهو يعطينا فكرة عامة عن طبيعة جميع الخطابات المتبادلة ومفهوم مضامينها. ويتبين من مضامينه كيف كان الخلفاء العباسيون يغرسون في قلوب أولئك السلاطين الشرقيين الولاء والتقديس والتوقير إزاءهم وحيال الخلافة العباسية، وفي الوقت نفسه يبالغون في مدحهم والثناء عليهم، ويُقلِّدونهم مقاليدَ الحُكم في بلاد الهند كلها. وكما جاء في ديباجة ذلك العهد: «عهدٌ شريف عهد به أمير المؤمنين إلى المقام الأشرف العالي السلطاني العادلي الشمسي أبي المجاهد «مظفر شاه» -أعزّ الله تعالى أنصاره-، وقلّده السلطنةَ المعظمة بحضرة «دهلي» وأعمالَها ومضافاتِها على عادة مَن تقدّمه في ذلك ولايةً عامة شاملة كاملة جامعة، وازعةً قاطعة ساطعة، شريفةً منيفة في سائر الممالك الهندية؛ أقاليمها وثُغورها، وبلادها وعساكرها، وأكابرها وأصاغرها، ورَعاياها ورُعاتها، وحُكامها وقُضاتها، وما احتوت عليه شرقًا وغربًا، بُعدًا وقربًا...»[١٦٢].

ويتضح من مضمون هذا العهد محاولة ترسيخ فكرةٍ في عقولهم وقلوبهم، ومفادها: بأنه لن يصح حكمهم دون الحصول على الشرعية والتقليد من الخليفة العباسي. ونستعرض فيما يلي بعض نصوص ذلك الخطاب العباسي الدالة على غيرها أسلوبًا ومضمونًا، فقد جاء فيه: «وبعد، فالحمد لله الذي ألهمنا الرشد، وجعل منا الخلفاء الراشدين...، واصطفى من هذا الخَلَفِ الشريف خَلائف الأرض، وسَنّ مواضي العقول التي قطعت أن طاعتنا فرض. فإن لعهدنا العباسي شرفًا لا يرفل في حلله الشرفة إلا من اتخذ مع الله عهدًا وأتاه بقلب سليم... ولا يتمسك بطيب هذا العهد الشريف إلا مَن صَحَا إلى القيام بواجب الطاعة، وانتظم في سِلك مَن أنزل الله في حقهم... وهو قبضةٌ مِن آثار البيعة النبوية، وشعارٌ يتشرف به مَن مشى تحت الراية العباسيّة، وما أُرسل هذا العهد النبوي إلى ملِك من مُلوك الأرض إلا عَمَّه الشرف من جميع جهاته... ولا أعلن به على مِنبر إلا شُدّت أعوادُه طربًا، وأزهرت رَوْنَقًا وأثمرت أدبًا... وكان المقام الأشرف العالي -إلى آخر الصفات السلطانية- السلطانُ الملكي المظفري شمس الدنيا والدين، والمستعين في زيادة شرف مُلكه بعد الله بالمستعين... ممن يرغب في التمسك بهذا العهد الشريف لِيزيلَ عن مُلكه الالتباسَ، واستند إليه ليرويَ في سَنَدِه العالي عن ابن عباس، ومشى بعين البصيرة في هذا المنهج القويم، وطاولَ بيد الخلافة الشريفة لإقامة الحد، علمًا بأن يد الخلافة لا تطاولها يد، وأخلص مودّته في التقرب إلى بيتنا الشريف لما شغفه حبًّا... إلخ»[١٦٣].

تتضمن نصوص هذا الخطاب الترغيبَ والترهيب والعبرة والتهذيب. ومن الطبعي أنه كان الدافع وراء كتابة مثل هذه العهود والتقاليد المليئة بالكلمات المؤثرة والعبارات البليغة تقويةَ الإيحاء بأنه لا يتم لهم الحكم الشرعيُّ إلا بولاية من الخليفة والحصول على ورقة التفويض والشرعية. وعمومًا، بالرغم من آفة التَّلف التي لحقت خطابات الخلفاء العباسيين المُرسلة إلى سلاطين دهلي والعكس -وهو ما لا يسمح لنا بالحديث عن طبيعة محتواها حديثًا يقينًا- فإن مضامين هذا الخطاب تتيح لنا الحديث في محتويات الخطابات الأخرى وفهم طبيعتها، حيث يبدو أنها عالجت موضوعات متعلقة بأهمية منظومة الخلافة العباسية، وقضايا أخرى من قبيل: الطاعة، والولايات، والعهود، والمنشور، والمشورة، والبيعة، إلخ، التي كانت أحد مظاهر هذه المنشورات وتلك العهود والتقاليد. ولأن هذا العهد ومضامينه خارج نطاق هذا البحث، فإني أكتفي بهذا القدر، لأنه يتطلب دراسةً مستفيضة في ورقة مستقلة[١٦٤].

ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن السلطان مظفر الأول، المذكور، كان واليًا على ولاية گجرات من قِبل نَصير الدين محمد شاه الثالث (المتوفى ٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م) أحدِ أبناء السلطان فيروز شاه تغلق. وبعد سقوط الدولة التغلقيّة، أعلن نفسَه سلطانًا على إمارة گجرات، ولقَّب نفسه «مظفر شاه»، وأخذ شارة الملوك والسلاطين، وسَكّ نقودًا وعملات باسمه[١٦٥]، وسيرًا على سُنَّة

(لوحة ١١) جامع في القاهرة، عن ليون جيروم.

السلاطين التغلقيين أرسل سفارته إلى الخليفة العباسي. وكان توقُّه المُعلَن لترسيخ حكمه هو ما دفعه إلى البحث عن أسس جديدة للشرعية، ولذلك رأى أنّ إرسال سفارة إلى الخليفة والحصول على كتاب العهد، سيوفر له سندًا شرعيًّا لتحقيق أهدافه السياسية المنشودة في سلطنته الفتيّة. إذًا، كانت حدود مملكته لا تتعدى إقليم گجرات بيد أنه -كما يتضح من مضمون العهد- كان يحكم دهلي وما حولها، فضلًا عن إقليم گجرات.

ولعلَّ من المفيد أيضًا أنْ نشير في هذا المقام إلى أنَّ العلاقاتِ الخارجيَّة لسلاطين دهلي تشمل أيضًا طبيعة علاقتهم بالمغول في آسيا الوسطى والإيلخانيين في منطقة فارس وخراسان، ومن ثَمَّ، لا بدَّ من دراسة العلاقاتِ التجاريَّة والفكريَّة لسلطنة دهلي بهذه المناطق، لا سيما وأنَّ هجراتِ العلماء والمفكرين والأدباء والشعراء استمرّت طيلة حكم سلطنة دهلي، غير أنَّ علاقتهم بالخلافة -لا سيما على عهد السلطان إيلتتمش ومحمد بن تغلق- تتبوأ مكانة تاريخيَّة مهمة.

وفي التحليل النهائيّ، نستطيع القول بأنَّ العَلاقاتِ الخارجيَّة لسلاطين دهلي لن يكون من المبالغة القول إنه باستثناء محمد بن تغلق، اتَّبع جميع السلاطين الآخرين سياسةً شديدة الحذر تجاه القوى المجاورة لهم، لا سيما المغول في آسيا الوسطى وإيلخان في بلاد فارس. وقد حدّدت علاقتهم بهذه القوى نظرياتهم السياسيَّة للمُلك، وقيّدت سياساتهم التوسعيَّة، وصاغت سياساتهم الاقتصاديَّة، وأسفرَت عن نتائج بعيدة المدى على الهيكل الإداريّ لسلطنة دهلي.

الهوامش

* باحث أكاديمي من الهند.

(١) André Wink, *Al-Hind*: *The Making of the Indo-Islamic World, vol. 1, Early Medieval India and the Expansion of Islam 7th-11th Centuries* (Leiden: Brill Academic, 2002): 25-64.

(٢) كانت أهم القوى التِّجارية التي أسهمت بقدر وافر في حركة التبادل التجاري هي: العرب، والفرس، والهنود، والصينيون، والأفارقة. ومن المسلَّم به أنْ تتفاوت مدى مساهمة كل قوى من تلك في النشاط التجاري، ولم يحدث أن انفردت قوة ما بالسيطرة المستمرة على تُجّار المحيط الهندي، وإنما كان يحدث تبادل للمواقع بينها، انظر: شوقي عبد القوي عثمان، **تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية: (٤١-٩٠٤ هـ/ ٦٦١-١٤٩٨ م)**، عالم المعرفة ١٥١ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٠): ٥٥.

(٣) عن الجالية الهندية التجارية المهاجرة إلى مصر وإلى البلدان المطلة على المحيط الهندي والبحر الأحمر، وعن الجالية المصرية التجارية، انظر: Wink, *Al-Hind*: 65-104.

(٤) السيد سليمان الندوي، «شهادة التوراة على قِدَم التجارة العربية الهندية»، **مجلة ثقافة الهند ١**، العدد ٢ (يوليو، ١٩٥٠): ٢٢٠.

(٥) سونيا. ي. هاو، **في طلب التوابل**، ترجمة محمد عزيز رفعت، مراجعة محمود النحاس، الألف كتاب الأولى ٩٨ (القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٧): ٢٩.

(٦) Sulaiman Nadvi, "Commercial Relations of India with Arabia", *Islamic Culture* 7, no. 2 (Apr 1933): 281-308.

(٧) للتفصيل، انظر: شوقي، **تجارة المحيط الهندي**: ٥٥ وما بعدها.

(٨) عن طرق التجارة المصرية والهندية القديمة، انظر: محمد إسماعيل الندوي، **تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية** (بيروت: دار الفتح، ١٩٧٠): ٢٧.

(٩) سيد سليمان الندوي، **العلاقات العربية الهندية**، ترجمة أحمد محمد عبد الرحمن، المشروع القومي للترجمة ١٢١٦ (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٨): ٨٥.

(١٠) للتفصيل عن المواد المستوردة من المناطق الهندية إلى مصر وإلى دول الشرق الأوسط، انظر: شوقي، **تجارة المحيط الهندي**: ١٤٣ وما بعدها.

(١١) يذكر لنا المؤرخ الروماني سترابو حركة التجارة الرومانيَّة مع الهند، وازدهارها بعد ضمِّ الرومان لمصر. وعن حجم التجارة المتبادلة بين مصر والهند، كَتَبَ أنه رأى مرةً مائة وعشرين سفينةً جاهزةً للتوجه إلى الهند في ميناء ميوس هورموس الواقع على البحر الأحمر. وكانت التوابل على رأس البضائع المستوردة من الهند إلى العالم الغربيِّ. وكان للجالية الهنديَّة التجاريَّة حضور قويٌّ في الإسكندرية. وأثبت الارتباط التجاريُّ الهنديُّ مع جنوب شرق آسيا أنه أمر حيويٌّ لتجارة شبه الجزيرة والشرق الأوسط، وبلاد فارس خلال القرنيْن السابع والثامن الميلاديين. للتفصيل، انظر:

Donald Frederick Lach, *Asia in the Making of Europe*, vol. 1, *The Century of Discovery* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1994): 18; Gary Keith Young, *Rome's Eastern Trade: International Commerce and Imperial Policy 31 BC – AD 305* (London: Routledge, 2001): 131, 137.

(١٢) تارا چند، تمدن هند پر إسلامي أثرات، ترجمة محمد مسعود أحمد (لاهور: مجلس ترقي أدب، ١٩٦٤): ٥٢-٥٣.

(١٣) S. M. Stern, "Heterodox Ismailism at the Time of al-Mu'izz", *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* (BSOAS) 17 (1955): 11, 13, 26-27.

(١٤) S. M. Stern, "Ismaili Propaganda and Fatimid Rule in Sind", *Islamic Culture* 23 (1949): 298-307; Abbas H. Al-Hamdani, *The Beginnings of the Ismaili Da'wa in Northern India*, The Hamdani Institute of Islamic Studies. *Islamic Studies Series 1* (Cairo: Sirovic Bookshop, 1956): 3-5.

(١٥) تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد الحسيني العبيدي المقريزي (ت ٨٤٥ هـ)، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد مصطفى زيادة، مج. ١، قسم ١ (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة، ١٩٥٨): ٢٢٣.

(١٦) المرجع السابق: ٢٤٣.

(١٧) المرجع السابق، قسم ٣: ٧٤٢. أصدر الملك المنصور قلاوون ذاك المنشور بهدف تحقيق الأهداف الاقتصادية والسياسية وكَسْبِ وُد الدول والإمارات الإسلامية المطلة على المحيط الهندي، وتشجيع التجار الهنود والعرب على القدوم إلى مصر ومزاولة التجارة معها. راجع مضامين ذلك المنشور عن تأمين التجار حيث جاء في إحدى فقراته: «... فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم، فليأخذ الأهبة بالارتحال إليها ليجد الفِعالَ من المقال أكبرَ، ويرى إحسانًا يقابل في الوفاء بهذه العهود بالأكثر، ويحل منها في بلدة طيبة ورب غفور... وتبقى أموالهم على مخلفيهم وتستخلصهم لأن يكونوا مُتفيئينَ في ظلالها وتصطنعهم، ومَن أحضر معه بضائعَ من بهار وأصناف تحضرها تجار الكارم فلا يُخاف عليه في حق، ولا يُكلف أمرًا يشق، فقد أبقى لهم العدل ما شَاقَ، ورفع عنهم ما شَقّ...»، انظر: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي (ت ٨٢١ هـ)، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، تحقيق محمد حسين شمس الدين وآخرين، مج. ١٣ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧): ٣٤٠-٣٤٢.

(١٨) انظر الهامش: المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، مج. ١، قسم ٣: ٨٩٩.

(١٩) وعلى سبيل المثال، وَفْقًا للمؤرخ الرسولي الخزرجي أرسلَ تجار قاليقوت هدايا وكِتابًا إلى السلطان الأشرف بن الأفضل الرسولي سنة (٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م) يُعلنون ولاءهم له ويستأذنونه في السماح لهم بالخُطبة له على منابر بلادهم، فوافق الأشرف على مطالبهم، وأنعمَ على الرُّسل وأكرمهم. وقد حفظ لنا الخزرجي بعض المقالات لذلك الكتاب، انظر: موفق الدين أبو الحسن علي بن الحسن بن أبي بكر بن الحسن بن وهاس الخزرجي الزبيدي (ت ٨١٢ هـ)، **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية**، تحقيق: محمد بسيوني عسل، مج. ٢ (القاهرة: مطبعة الهلال، ١٩١٤): ٢٤٤-٢٤٧.

(٢٠) المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، مج. ١، قسم ٣: ٧١٢-٧١٣.

(٢١) بيرو طافور، **رحلة طافور: في عالم القرن الخامس عشر الميلادي**، ترجمة حسن حبشي (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٢): ٩٧.

(٢٢) المرجع السابق: ٧٨.

(٢٣) أحمد دراج، **المماليك والفرنج: في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي** (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦١): ٢، ١٣٤.

(٢٤) المرجع السابق: ٢٤٣.

(٢٥) المرجع السابق: ١٣٤.

(٢٦) المرجع السابق: ١٣٦-١٣٨.

(٢٧) المرجع السابق: ١٥٦.

(٢٨) Gavin R. G. Hambly, "From Baghdad to Bukhara, from Ghazna to Delhi: The Khil'a Ceremony in the Transmission of Kingly Pomp and Circumstance", *Robes and Honor: The Medieval World of Investiture*, edited by Stewart Gordon, *The New Middle Ages* (New York, NY: Palgrave, 2001): 195.

(٢٩) المرجع السابق: ١٩٥.

(٣٠) للتفصيل، انظر: السيد أبو الظفر الندوي، **تاريخ سنده** (أعظم گره، الهند: دار المصنفين، ١٩٧٠): ٢٥٩-٢٦٠؛ ٢٧٤-٢٧٥.

(٣١) أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي (ت ٤٢٧ هـ)، **اليميني: في شرح أخبار السلطان يمين الدولة وأمين الملة محمود الغزنوي**، تحقيق إحسان ذنون الثامري (بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٤): ٣١١.

(٣٢) المرجع السابق: ١٧٨.

(٣٣) Muhammad Nazim, *The Life and Times of Sultan Mahmud of Ghazna*, foreword by Thomas Arnold (Cambridge: Cambridge University Press, 1931): 136-137.

(٣٤) عن مصير المبعوث التاهرتي الوارد من مصر، انظر: العتبي، **اليميني**: ٣٩٠ وما بعدها.

(٣٥) المرجع السابق: ٣٩٥.

(٣٦) Nazim, *The Life and Times of Sultan Mahmud of Ghazna* 164-65; C. E. Bosworth, "The Titulature of the Early Ghaznavids", *Oriens* 15, no. 1 (Dec 1962): 210-233.

(٣٧) C. E. Bosworth and C. F. Bosworth, "The Imperial Policy of the Early Ghaznawids", *Islamic Studies* 1, no. 3 (1962: 49-82.

(٣٨) أبو الفضل محمد بن حسين البيهقي (ت ٥٧٠ هـ)، **تاريخ البيهقي**، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، [١٩٥٦]): ١٧.

(٣٩) المرجع السابق: ٤٢-٤٣، ٤٥-٤٦.

(٤٠) المرجع السابق: ٤٦-٤٧.

(٤١) المرجع السابق: ٤٧.

(٤٢) A.J. Arberry, *Classical Persian Literature* (London: George Allen and Unwin, 1958): 53.

(٤٣) C. E. Bosworth, "Ghūrids", in *Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed., vol. 2, C–G, edited by B. Lewis, Ch. Pellat and J. Schacht (Leiden: Brill, 1965): 1099-1104.

(٤٤) وفقًا للجوزجاني، «وقد جمع كل من حضر من الأكابر والأمراء وأشراف الغور وأعدّهم جميعًا ليبايعوا غياث الدين على السلطنة، وأجلسوه على عرش السلطنة»، انظر: صدر جهان أبو عمر منهاج الدين عثمان ابن سراج الدين محمد الجوزجاني (منهاج سراج، ت ٦٥٨ هـ)، **طبقات ناصري**، ترجمة عفاف السيد زيدان، مج. ١، المشروع القومي للترجمة ١٨٢٧ (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٣): ٥٢٢.

(٤٥) للتفصيل، انظر: المرجع السابق: ٥٦٨ وما بعدها.

(٤٦) ويتضح من كلام الجوزجاني، أنَّ السفارة من جانب الخليفة إلى غِياث الدين وصلت عدّة مرات. للتفصيل، انظر: المرجع السابق: ٥٢٧.

(٤٧) كانت تلك العادة للاحتفال عند وصول ورقة التفويض من الخليفة مُتبعَة أيضًا لدى سلاطين دهلي وسيأتي ذلك مفصلًا، وكذلك اتَّبعها السلاطين المغول عند وصول البعثات والسفارات من الخلافة العثمانية فيما بعد. للتفصيل عن ذلك في عصر الدولة المغولية، انظر: William Irvine, *The Army of the Indian Moghuls Its Organization and Administration* (New Delhi: Eurasia, 1962): 30-31; 207-209.

(٤٨) منهاج سراج، **طبقات ناصري**، مج. ١: ٥٢٦-٥٢٧.

(٤٩) عن ترجمة معز الدين محمد بن سام، انظر: المرجع السابق: ٥٦٧-٥٧٨.

(٥٠) عن ترجمة السلطان تاج الدين يلدز المعزي، انظر: المرجع السابق: ٥٨٣ وما بعدها.

(٥١) عن ترجمة السلطان قطب الدين أيبك، انظر: المرجع السابق: ٥٨٧-٥٨٩ وما بعدها.

(٥٢) عن ترجمة القباچة، انظر: المرجع السابق: ٥٩٤-٥٩٦.

(٥٣) عن ترجمة بختيار الخلجي، انظر: المرجع السابق: ٥٩٨ وما بعدها.

(٥٤) وكتب الجوزجاني في مكان آخر تحت عنوان (عبيده الذين وصلوا إلى السطنة) قائلًا: السلطان تاج الدين يلدز في غزنين، والسلطان ناصر الدين قباچة في الملتان وآچه، والسلطان قطب الدين أيبك في لاهور، والسطان عوض الخلجي في لكهنؤتي أي في بنگال، انظر: المرجع السابق: ٥٧٩.

(٥٥) أرسل غياث الدين التشريف للسلطان تاج الدين وأعطاه خطاب العتق، وأحال له عرش غزنين. وبحكم ذلك الأمر قدم تاج الدين إلى غزنين، وسيطر على ملوك باميان، وجلس على عرش غزنين، انظر: المرجع السابق: ٥٨٥-٥٨٦.

(٥٦) المرجع السابق: ٥٤٢-٥٤٣.

(٥٧) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري (ت ٨٧٣ هـ)، **كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، تحقيق بولس راويس (باريس: المطبعة الجمهورية، ١٨٩٦): ٨٩-٩٠.

(٥٨) خليق أحمد نظامي، **سلاطين دهلي كي مذهبي رجحانات** (دهلي: ندوة المصنفين، ١٩٨١): ٨٠.

(٥٩) عن ترجمة السلطان آرام شاه ابن السلطان قطب الدين أيبك، انظر: منهاج سراج، **طبقات ناصري**، مج. ١: ٥٩٣-٥٩٤؛ لمزيد من التفاصيل عن ترجمة آرام شاه ووضع الدولة القطبية في الهند، انظر:
Edward Thomas, *The Chronicles of the Pathan Kings of Delhi: Illustrated by Coins, Inscriptions, and Other Antiquarian Remains* (London: Trubner, 1871): 40-41.

(٦٠) وفقًا للجوزجاني، فقد أمر السلطان قطب الدين أيبك بكتابة ورقة عتقه، وصار مرموقًا في نظر الملوك، فأبلغوه إلى عز عتقه وتحريره، انظر: منهاج سراج، **طبقات ناصري**، مج. ١: ٦٢٠.

(٦١) إذا كانت عادة «الخشداشية» وهو مصطلح يعبر عن علاقة أخلاقية مثالية بين مجموعة المماليك التابعين لسيد واحد، المتبعة في مصر المملوكية موجودة لدى المماليك في دهلي، -لكان إيلتتمش ملزمًا بتعزيز مصالح ابن سيده الراحل، لأن داخل منظومة الخشداشية كانت رابطة الأخوة أو المؤاخاة أقوى وأوثق من أي رابطة أخرى معروفة للناس، وخصوصًا -ووَفقًا للجوزجانيّ- كان السلطان أيبك يعد إيلتتمش ابنًا له، فقربه وزوجه ابنته، انظر: المرجع السابق: ٥٩٣. ومع أن مصطلح خشداشية أو ما يعادله باللغة الفارسية لم يُعثر عليه في المصادر الهندية، غير أنَّ اعتياد المؤرخ منهاج سراج على الإشارة إلى المماليك المعزي والقطبي والشمسي يميز بالتأكيد بين أفراد أُسر العبيد المختلفة وأسيادهم، مما لا يجعل الأمر صعبًا لنفترض وجود الارتباط المشابه بينها وبين الخشداشية المصرية. للتفصيل عن هذا المصطلح، انظر:
Donald Presgrave Little, *An Introduction to Mamluk Historiography: An Analysis of Arabic Annalistic and Biographical Sources for the Reign of Al-Malik An-Nāṣir Muḥammad Ibn Qalā'ūn* (Montréal, QC: McGill-Queen's University Press, 1970): 125-26; Peter Jackson, "The "Mamlūk" Institution in Early Muslim India", *Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland*, no. 2 (1990): 351.

(٦٢) وَفقًا للجوزجاني خرج الأمراء الأتراك والأمراء المعزية عليه، وبدءوا العصيان والخروج. للتفصيل، انظر: منهاج سراج، **طبقات ناصري**، مج. ١: ٦٢١. أما الدورباش، فهي عصا مرصعة كانوا يمسكونها أمام موكب الملوك ليعلم الناس أنّ الملك قادم، فيقفون على الجانبين، ويفسحون له الطريق، انظر: محمد حسين بن خلف تبريزي، **برهان قاطع**، مج. ٢ (طهران: مؤسسة انتشارات أمير كبير، ١٩٨٢): ٨٩٥.

(٦٣) منهاج سراج، **طبقات ناصري**، مج. ١: ٥٩٨-٥٩٩.

(٦٤) عن تلك الوقائع وكيفية قتل تاج الدين يلدوز، انظر: المرجع السابق: ٥٨٧، ٦٢١-٦٢٢.

(٦٥) وَفقًا لجوزجاني، فإنه أغرقَ نفسه في نهر السِّند بعد قيام السلطان إيلتتمش بالاستيلاء على بهكر والأراضي الأخرى التابعة لقباچة، انظر: المرجع السابق: ٥٩٥-٥٩٦.

(٦٦) المرجع السابق: ٦٢٨.

(٦٧) المرجع السابق: ٦٢٤.

(٦٨) Henry Miers Elliot, *The History of India: As Told by Its Own Historians: The Muhammadan Period*, edited by John Dowson, vol. 2 (London: Trübner, 1869): 243.

(٦٩) يحيى أحمد سرهندي، **تاريخ مبارك شاهي**، تحقيق هدايت حسين (كلكتا، الهند: الجمعية الآسيوية، ١٩٣١): ١٩.

(٧٠) نبغَ العديد من الشعراء والأدباء على عهد السلطان إيلتتمش، ومنهم الشاعر والأديب الفارسي تاج الدين الذي كان يلقب بـ«ريزة أو سنگريزة»، بسبب قامته القصيرة. ووَلِيَ ديوانَ الرسائل في عهديْ كُلٍّ من السلطان إيلتتمش وخَلَفه ركن الدين فيروز شاه، وكان فاضلًا شاعرًا مجيد الشعر قرض قصائد وأشعارًا عديدة في مناسبات سياسية وعسكرية واجتماعية ودينية. لترجمته المفصلة، انظر: محمد إكرام، **آب كوثر** (لاهور: إدارة ثقافة إسلامية، ٢٠٠٦): ١٢٠.

(٧١) نظامي، **سلاطين دهلي**: ١٢٧. لقصيدته الكاملة، انظر: أوحد الدين أنوري، **كليات نظم أنوري**، تحقيق حافظ محمود شيراني، (لكهنؤ: مطبع منشي نولكشور، ١٨٨٩): ١٣٣-١٣٥.

(٧٢) اسمه الكامل: حسن بن محمد بن الحسن بن حيدر بن علي القرشي، وُلد في لاهور ونشأ فيها، ثم رحل مع أسرته إلى بغداد واستقر فيها، وزار معظم البلدان العربية والإسلامية، وحجَّ مرات عديدة ودرس في الحرم على شيوخ عصره، وتوفي في مكة عام (٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م). ووَفْقًا لقول الذهبي: «كان إليه المنتهى في معرفة اللسان العربي». ترك مصنفات عديدة في اللغة العربية والمعاجم، من مثل «العُباب الزاخر واللُّباب الفاخر»، و«الشوارد في اللغة»، وكتاب في علم الحديث بعنوان: «مشارق الأنوار في الجميع بين الصحيحين»، وغيرها، انظر ترجمته في: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن شهاب الدين أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله الذَّهَبي (ت ٧٤٨ هـ)، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق بشار عواد، مج. ٢٣ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦): ٢٨٢-٢٨٤.

(٧٣) نظامي، **سلاطين دهلي**: ١٢٧-١٢٨.

(٧٤) Zubaid Ahmad, *The Contribution of India to Arabic Literature: From Ancient Times to 1857*, foreword by H. A. R. Gibb (Jullundur, Punjab: Maktaba-I-Din-O-Danish, 1946): 41.

(٧٥) ضياء الدين برني، **تاريخ فيروز شاهي**، ترجمة سيد معين الحق (لاهور: مكتبة أردو سائنس بورد، ٢٠٠٤): ١٨١–١٨٢.

(٧٦) منهاج سراج، **طبقات ناصري**، مج. ١: ٦٢٩.

(٧٧) Thomas, *The Chronicles*: 46.

(٧٨) المرجع السابق: ٤٨–٥١.

(٧٩) المرجع السابق: ٥٢–٥٣.

(٨٠) المرجع السابق: ٧٩–٨٠.

(٨١) المرجع السابق: ٨١–٨٤.

(٨٢) المرجع السابق: ١٠٧–١١٨.

(٨٣) هو أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله بن المنصور المستنصر بالله بن محمد الظاهر بأمر الله بن أحمد الناصر لدين الله الذي يعود نسبه إلى هارون الرشيد، وُلد ببغداد عام (٦٠٩هـ/ ١٣١٢م)، وقُتل على يد «المنغول» سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م).

(٨٤) Thomas, *The Chronicles*: 118-119, 122-124, 126-129, 141, 145.

(٨٥) المرجع السابق: ١٣٦.

(٨٦) المرجع السابق: ١٣٤–١٣٥.

(٨٧) المرجع السابق: ١٤٩–١٥٠.

(٨٨) Khaliq Ahmad Nizami, *Some Aspects of Religion and Politics in India during the Thirteenth Century*, foreword by C. Collin Davies, introduction by Mohammad Habib (Aligarh, India: Aligarh Muslim University. Department of History, 1961): 92-97.

(٨٩) قُتل المستعصم في بغداد عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، في حين استمر حكم بلبن منذ عام (٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م) إلى عام (٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م).

(٩٠) ياسر عبد الجواد المشهداني، **العلاقات المصرية الهندية في العصر المملوكي: دراسة في الجوانب السياسية والحضارية** (القاهرة: المكتب العربي للمعارف، ٢٠١٥): ٤٦–٤٧.

(٩١) H. Nelson Wright, *The Coinage and Metrology of the Sulṭāns of Delhi* (Delhi: Manager of Publications, 1936): 58; Thomas, *The Chronicles*: 134.

(٩٢) نظامي، **سلاطين دهلي**: ١٨١.

(٩٣) برني، **تاريخ فيروز شاهي**: ١٠٣.

(٩٤) محمد قاسم هندوشاه أسترآبادى فرشته، **تاريخ فرشته**، مج. ١ (لكهنؤ: مطبع منشي نولكشور، [١٩٠٣]): ٧٥.

(٩٥) Marshall G. S. Hodgson, *Rethinking World History: Essays on Europe, Islam and World History*, edited by Edmund Burke, Studies in Comparative World History (Cambridge: Cambridge University Press, 1993): 173.

(٩٦) نظامي، **سلاطين دهلي**: ١٨٢.

(٩٧) المرجع السابق: ٢٨٨.

(٩٨) Thomas, *The Chronicles*: 155.

(٩٩) المرجع السابق: ١٦٨.

(١٠٠) المرجع السابق: ١٧٣.

(١٠١) المرجع السابق: ١٧٩–١٨٣.

(١٠٢) المرجع السابق: ١٧٩–١٨٠.

(١٠٣) المرجع السابق: ١٨٠.

(١٠٤) Wright, *The Coinage and Metrology*: 96-98, 100-101, 102; Thomas, *The Chronicles*: 179-182.

(١٠٥) المرجع السابق: ١٨٦–١٩٢.

(١٠٦) عن تاريخ الخلفاء العباسيين في القاهرة (٦٥٩–٩٢٣هـ/ ١٢٦١–١٥٢٧م) ونشاطاتهم السياسية والدينية انظر:
Mustafa Banister, *The Abbasid Caliphate of Cairo (1261-1517): History and Tradition in the Mamluk Court* (PhD diss., University of Toronto, Department of Near and Middle Eastern Civilizations, 2015).

(١٠٧) Peter Jackson, "The Mongols and the Delhi Sultanate in the Reign of Muḥammad Tughluq (1325-1351)", *Central Asiatic Journal* 19, no. 1/2 (1975): 118-157.

(١٠٨) Iqtidar Husain Siddiqui, *"Sultan Muhammad bin Tughluq's Foreign Policy: A Reappraisal", Islamic Culture* 62 (1988): 1-22.

(١٠٩) Thomas, *The Chronicles*: 207-208, 210-211, 213-214.

(١١٠) المرجع السابق: ٢١٥.

(١١١) Wright, *The Coinage and Metrology*: 120.

(١١٢) ذكر الثعالبي تلك النظرية في فصل «في طاعة السلطان» ضمن كلمات الطاعات الأخرى، وقد بالغ في بعض العبارات مثلما كتب: «مَن خرج عن الطاعة وفارق الجماعة، مات ميتة جاهلية»، ومنها تلك العبارة: «مَن أطاع السلطان فقد أطاع الرحمن، ومَن عصى السلطان فقد أطاع الشيطان». للتفصيل، انظر: أبو منصور عبد الملك بن محمد ابن إسماعيل الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩ هـ)، **آداب الملوك**، إعداد وتقديم عبد الحميد حمدان، زبدة التراث ١٦ (القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٧): ٢٧–٢٨.

(١١٣) Wright, *The Coinage and Metrology*: 143; Thomas, *The Chronicles*: 249-250.

(١١٤) نظامي، **سلاطين دهلي**: ٣٧٦-٣٧٧.

(١١٥) لعلّ أول دينار ذهبي ضُرب في عهد السلطان محمد بن تغلق في عام (٧٤١هـ/ ١٣٤٠م)، ويحمل العبارة الآتية: «ضُرب هذا الدينار الخليفي الدهلي في شهور سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، في زمان الإمام المستكفي بالله أمير المؤمنين أبو الربيع سليمان، خلَّد الله خلافته»، ثم ضرب دينارًا آخر في عام (٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) باسم الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله، والنقش يفيد: «في زمان الإمام أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد، خُلِّد مُلكه»، للتفصيل انظر: Wright, *The Coinage and Metrology*: 149-152; Thomas, *The Chronicles*: 259-260.

(١١٦) نظامي، **سلاطين دهلي**: ٣٧٧.

(١١٧) برني، **تاريخ فيروز شاهي**: ٦٩٩-٧٠٠.

(١١٨) **مخطوط سيرت فيروز شاهي**، پتنه، الهند، مكتبة خدا بخش (رقم الحفظ: ٩٩): ورقة ١٣٩.

(١١٩) نظامي، **سلاطين دهلي**: ٣٧٧. إنه لمن الصعب قبول هذا الرأي المقتبس من كتاب تاريخ ألفي، لأنه أُلّف على عهد السلطان المغولي جلال الدين محمد أكبر (المتوفى ١٠١٤هـ/ ١٦٠٧م)، في حين أنَّ المؤرخ برنيلم لم يُشِر إلى ذلك البتة، مع أنه دوّن نشاطات قتلغ خان السياسية والعسكرية والإدارية في أماكن عديدة، كما كتبَ أنَّ محمد بن تغلق درسَ في زمن طفولته بعض الكتب على يديه، ولذلك كان يعظّمه تعظيمًا كبيرًا، ويحترمه احترامًا شديدًا، انظر: برني، **تاريخ فيروز شاهي**: ٧١٨. على حين أحال بعض الباحثين تلك المعلومة، بل الفقرة الكاملة إلى برني الذي لم يذكر ذلك بَتاتًا، انظر: محمد نصر عبد الرحمن، «العلاقات بين سلاطين دلهي والخلافة العباسية: دراسة في الفكر السياسي لسلاطين دلهي (٦٠٢-٨١٦ هـ/ ١٢١٠-١٤١٤ م)»، **المجلة التاريخية المصرية** ٤٥ (٢٠٠٩): ٣٠.

(١٢٠) شمس الدين الشجاعي (ت ٧٤٥ هـ)، **تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده**، تحقيق وترجمة برباره شيفر، قسم ١، النص العربي، مصادر تاريخ مصر الإسلامية ٢. قسم ١-٢ (فيسبادن: فرانتس شتاينر، ١٩٧٧): ٢٥٧.

(١٢١) برني، **تاريخ فيروز شاهي**: ٧٠٠. انظر النص الفارسي: «سلطان از بسيار تتبع ميكرد تا از بسيار مسافران شنيد كه خليفة از آل عباس در مصر بر خلافت متمكن است»، في: برني، **تاريخ فيروز شاهي**، تحقيق المولوي السيد أحمد خان صاحب (كلكتا: الجمعية الآسيوية، ١٨٦٢): ٤٩٢.

(١٢٢) برني، **تاريخ فيروز شاهي** (٢٠٠٤): ٧٠٠.

(١٢٣) اسمه الكامل كما جاء في المصادر المصرية «أبو العباس أحمد بن الإمام المستكفي بالله أبو الربيع سليمان بن أحمد»، انظر: الشجاعي، **تاريخ الملك الناصر**، قسم ١: ٢٥٤.

(١٢٤) برني، **تاريخ فيروز شاهي** (٢٠٠٤): ٧٠١ وما بعدها.

(١٢٥) المرجع السابق: ٧٠٠-٧٠١.

(١٢٦) يتبين من كلام المؤرخ المصري الشجاعي أن السفارات والهدايا لم تكن تصل إلى الخليفة العباسي في القاهرة مباشرةً، بل عن طريق السلطان المملوكي. وكذلك ما كان يكتب الخليفة العهد والتقليد لأحد دون موافقة السلطان. وقد أرسل السلطان محمد بن تغلق هدايا خاصة للسلطان وللخليفة، وطلب في خطابه الموجَّه إلى السلطان محمد ابن قلاوون أن يدع الخليفة يكتب له الورقة الشرعية، وبدوره طلب قلاوون الخليفة وعرّفه ذلك، فكتب له تقليدًا بالولاية على بلاده. وهو الذي قرّر أن يرسل سفارة إلى دهلي بالتقليد صُحبةَ الشيخ ركن الدين مع الهدايا، انظر: الشجاعي، **تاريخ الملك الناصر**، قسم ١: ٢٥٨.

(١٢٧) وفقًا للمصادر المصرية، فإن تلك البعثة التغلقية وصلت إلى القاهرة في عام (٤٤٧هـ/ ١٣٤٣م)، فكتب الشجاعي المعاصر لتلك الأحداث بأنه حضر في سنة أربع وأربعين وسبع مائة رسولُ ملك الهند وصَحِبته هدايا وتحف، وجوهر مفتخر، من جملته فصين ياقوت، وكُتب السلطان بالسلام والود، انظر: المرجع السابق: ٢٥٧. بيد أنه لم يذكر اسم السلطان محمد تغلق. وكما يبدو من كلامه بأنه وضع مقالة غير دقيقة من عنده حينما ذكر سبب وصول السفارة التغلقية، فكتب قائلًا: «ذكر السلطان الهندي في خطابه أنهم -هو وأهل مملكته- قد دخلوا في دين الإسلام وواقفينَ على منار الشرع الشريف ومتمسكينَ بفرايضه وسُننه... وأن يرسل ذلك صحبة رجل من أهل العلم ليظهر لهم ما غمض عليهم من الأمور الشرعية ويفهمهم السنن والفرايض»، انظر: المرجع السابق. وكأن السلطان محمد بن تغلق وأهل مملكته كانوا من أهل الكفار والمشركين وأسلموا، وهو كلام غير صحيح بالمرة، بل كانوا مسلمين أبًا عن جد. ومن المعلوم وكما تفيد المصادر الهندية المعاصرة لسطان محمد بن تغلق بأن بلاطه كان حافلًا بالعلماء والفضلاء والمشايخ الصوفية الذين استقدمهم السلطان من الدول العربية والإسلامية. للتفصيل، انظر: نظامي، **سلاطين دهلي**: ٣٤٩-٣٥٣. وكتب القلقشندي واصفًا خِوانه الخاص قائلًا: «ويُمد للسلطان خِوانٌ خاص، ويحضره معه من الفقهاء مائتا فقيه في الغداء والعشاء ليأكلوا معه ويبحثوا بين يديه»، انظر: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي (ت ٨٢١ هـ)، **كتاب صبح الأعشى**، مج. ٥ (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩١٥): ٩٥. كما كتب القلقشندي نفسه في مكان آخر عن الوضع العلمي في دهلي على عهد السلطان محمد بن تغلق: «وفيها ألفُ مدرسة، منها مدرسةٌ واحدة للشافعية وباقيها للحنفية»، انظر: المرجع السابق: ٦٩. والظاهر أنه لم يكن لدى الشجاعي علم بالوضع الديني والعلمي في الهند. قارن بما كتبه العمري، انظر، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري (ت ٧٤٩ هـ)، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق كامل سلمان الجبوري، مج. ٣ (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.): ٤٩، ٥٦-٥٧. وكتب العمري في مكان آخر واصفًا علمَ السلطان محمد بن تغلق بقوله: «وله فضيلةٌ جمّة، يحفظ كتابَ الله تعالى، وكتابَ الهداية، ويجيد في المعقول، ويكتب خطًّا حسنًا... ويقول الشعر وينظمه، ويباحث العلماء، ويناظر الفضلاء...»، انظر: المرجع السابق: ٦٣. ومن العجيب أن القاضي شهبة نقل حرفيًّا مقالات الشجاعي بعينها دون التدقيق والتحقيق والتمحيص، انظر: تقي الدين أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن عبد الوهاب الفقيه أبو الفضل الأسدي الشهبي الدمشقيّ (ابن قاضي شهبة، ت ٨٥١هـ)، **تاريخ ابن قاضي شهبة**، تحقيق عدنان درويش، مج. ٢ (دمشق: المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٩٤): ٣٦٤.

(١٢٨) اسمه الكامل الشيخ ركن الدين شيخ الخانقاه، انظر: الشجاعي، **تاريخ الملك الناصر**، قسم ١: ٢٥٨.

(١٢٩) برني، **تاريخ فيروز شاهي**: ٧٠٣-٧٠٤.

(١٣٠) محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة، انظر: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ابن بطوطة، ت ٧٧٩ ه)، **رحلة ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق محمد عبد المنعم العريان، راجعه وأعد فهارسه مصطفى القصاص (بيروت: دار إحياء العلوم، ١٩٨٧): ٤٦٥.

(١٣١) بدر الدين چاچ، **قصائد بدر چاچ** (لكهنؤ: مطبع منشى نولكشور، [١٨٩٨]). انظر عناوين المقالات الآتية في المرجع السابق: «قصيدة در تهنيت رسيدن خطاب بادشاه از خليفة عباسية»: ١٣-١٥؛ «در تهنيت رسيدن خلعت وفرمان خليفة عباسيان بشاره هند»: ١٥-١٦؛ «قصيدة در تهنيت رسيدن خلعت بني عباس ببادشاه وتعريف حسن وآئين شهر دهلي»: ١٦-١٨؛ «در تعريف جشن شاه هند ومدح أبو الربيع سليمان عباسي وثناي محمد شاه تغلق»: ٢٠-٢١.

(١٣٢) المرجع السابق: ٢٠- ٢١.

(١٣٣) خليق أحمد نظامي، **أوراق مصور**، سلسلة مطبوعات شعبة أردو (دهلي: جامعة دهلي، ١٩٧٢): ١٧.

(١٣٤) خصص صاحب سيرة فيروز شاهي أيضًا صفحات عديدة لذكر أسماء الخلفاء العباسيين وعلاقة سلاطين دهلي بهم، وتناول مفصلًا كيفية وصول السفارة العباسية إلى دهلي على عهد السلطان محمد بن تغلق، انظر: **مخطوط سيرت فيروز شاهي**: ورقة ٢٧٢-٢٧٣-٢٧٤-٢٧٥.

(١٣٥) برني، **تاريخ فيروز شاهي**: ٧٠٤.

(١٣٦) ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**: ٤٦٩.

(١٣٧) المرجع السابق: ٤٦٩-٤٧٠.

(١٣٨) المرجع السابق: ٤٧٠.

(١٣٩) المرجع السابق: ٤١٤.

(١٤٠) المرجع السابق: ٤٨٠.

(١٤١) محمد عبد العال أحمد، **بنو رسول وبنو طاهر: وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما: ٦٢٨-٩٢٣ه/ ١٢٣١-١٥١٧م**، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩): ٤٥٢-٤٥٣. ووَفقًا للمصادر المصرية فإن السفارة من جانب أبي سعيد بهادر وصلت إلى القاهرة في عام (٧٢٠ه/ ١٣٢٠م) في قيادة المجد إسماعيل السلامي بهدايا جليلة وتحف ومماليك وجوارٍ مما يقارب قيمته عشرة آلاف درهم، انظر: عماد الدين إسماعيل ابن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب (أبو الفداء، ت ٧٣٢ه)، **المختصر في أخبار البشر**، تحقيق محمد زينهم عزب، ويحيى سيد حسن، تقديم حسين مؤنس، مج. ٤، ذخائر العرب ٦٩ (القاهرة: دار المعارف، د.ت.): ١٠٥-١٠٦.

(١٤٢) كان أبو سعيد بهادر خان (المتوفى ٧٣٥ه/ ١٣٣٥م) الحاكم التاسع للدولة الإيلخانية، وكانت تلك الدولة تشمل منطقة فارس وأذربيجان وجورجيا وأرمينيا، وكذلك أجزاء من العراق وتركيا وأفغانستان. وقد انتشر الوباء أو الطاعون الأسود الذي اجتاح أنحاء أوروبا بين عامي (٧٤٧-٧٥٢ه/ ١٣٤٧-١٣٥٢م)، وتسبب في موت ما لا يقل عن ثلث سكان القارة -في الدولة الإيلخانية-، وكان أبو سعيد وأبناؤه من بين الذين سقطوا ضحايا للوباء. لترجمته انظر:
P. Jackson, "Abū Saʿīd Bahādor Khan", *in Encyclopædia Iranica*, vol. 1, fasc. 4 (London, 1982): 374-377.

(١٤٣) انظر خطاب السلطان محمد بن تغلق في: أحمد بن محمد تاج الدين وزير، **كتاب بياض تاج الدين أحمد وزير (٧٨٢ه/ ١٣٨٠م)**، تحقيق إيرج أفشار، ومرتضى تيموري (طهران: دانشگاه أصفهان، شماره ١٣٧، [١٩٧٤])؛ أحمد بن محمد تاج الدين وزير، **كتاب بياض تاج الدين أحمد وزير**، دبي، مركز جمعة الماجد (رقم الحفظ: ٣٩٩٤١٧): ورقة ٤٠٤-٤٠٨. عن وصول السفارات من جانب أبي سعيد إلى محمد بن تغلق، انظر: محمد بن علي بن محمد شبانكاره اى (ت بعد ٧٥٩ه)، **مجمع الأنساب**، إسطنبول، المكتبة السليمانية (رقم الحفظ: ٩٠٩): ورقة ١٨٩، ٢٦٤. وهذا الكتاب المعاصر لأبي سعيد هو المصدر الوحيد الذي يشتمل على أخبار مفصلة عن عهد حكمه، انظر: محمد بن علي بن محمد شبانكاره اى (ت بعد ٧٥٩ه)، **مجمع الأنساب**، تحقيق مير هاشم محدث (طهران: مؤسسة انتشارات أمير كبير، [١٩٨٤]).

(١٤٤) Stanley Lane-Poole, *The Coins of the Sultáns of Dehlí in the British Museum*, edited by Reginald Stuart Poole (London: British Museum Trustees, 1884): xxv-xxvii.

(١٤٥) للتفصيل عن تلك السفارة الأولى والثانية والثالثة إلخ، انظر: **مخطوط سيرت فيروز شاهي**: ورقة ٢٧٥-٢٧٦-٢٧٧؛ نظامي، **سلاطين دهلي**: ٤٣٠.

(١٤٦) راجع مما كتبه في المقالة الثامنة في فتوحاته حيث قال: ومِن أهم عطايا الله -جلَّ وعلا- وأجلِّها التي أعطانيها، أنه وفَّقني أنْ أمتثل لأوامر خلافة ابن عم رسول الله ﷺ، التي هي خلافة حقَّة، ولا ينبغي لي إلا أنْ أنضمَّ إلى رايته، وآخُذ الإذْنَ منه بالحُكم والشرعية، وقد رسخ فيَّ هذا الاعتقادُ حتى صدر الحكمُ بالإذْن والنيابة من دار الخلافة، وأكرمَني أميرُ المؤمنين بلقب سيد السلاطين، وبالتكريماتِ والإنعاماتِ...»، انظر: فيروز شاه، **فتوحات فيروز شاهي**، الهند، مكتبة مولانا آزاد، جامعة عليگره الإسلامية (رقم الحفظ: أخبار ٤/٧٩/٢): ورقة ٨.

(١٤٧) نظامي، **سلاطين دهلي**: ٤٣١-٤٣٢. عن العهود والتقاليد التي أصدرها الخلفاء العباسيون في القاهرة لسلاطين الهند وحكامها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، انظر:
Blain H. Auer, *Symbols of Authority in Medieval Islam: History, Religion and Muslim Legitimacy in the Delhi Sultanate* (London: I. B. Tauris, 2012): 108-116.

(١٤٨) شمس سراج عفيف، **تاريخ فيروز شاهي**، ترجمة محمد فدا علي طالب (لاهور: دار سنگ ميل، ٢٠٠٩): ١٦٦-١٦٧.

(١٤٩) برني، **تاريخ فيروز شاهي**: ٨٣٢-٨٣٣.

(١٥٠) **مخطوط سيرت فيروز شاهي**: ورقة ٢٧٦-٢٧٧.

(١٥١) Thomas, *The Chronicles*: 269-299.

(١٥٢) المرجع السابق: ٣٠٣-٣١٧.

(١٥٣) المرجع السابق: ٣٣٠-٣٤٠، ٣٥٧-٣٦٤.

(١٥٤) عبد المنعم ماجد، **نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر: دراسة شاملة للنظم السياسية**، ط. ٢، منقحة، مج. ١ (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٩): ٣٢.

(١٥٥) A. B. M. Habibullah, *The Foundation of Muslim Rule in India: A History of the Establishment and Progress of the Turkish Sultanate of Delhi, 1206-1290 A.D.* (Allahabad, India: Central Book Depot, 1976): 233.

(١٥٦) Ishtiaq Husain Qureshi, *The Administration of the Sultanate of Delhi* (Lahore: Sh. Muhammad Ashraf, 1944): 25.

(١٥٧) Aziz Ahmad, *Studies in Islamic Culture in the Indian Environment* (London: Oxford University Press, 1964): 11.

(١٥٨) وَفقًا لبعض الباحثين فإن غِياث الدين عوض نقشَ اسم الخليفة على نقوده وعملاته المضروبة عام (٦١٧هـ/١٢١٩م) فقط من أجل تعزيز مكانته السياسية المستقلة، كما فعل الكثيرُ من الملوك والسلاطين قبلَه وبعدَه. للتفصيل، انظر:
Ahmad Hasan Dani, "Did Ghiyath-al-Din 'Iwad of Bengal Receive Investiture from the *Khalifah?" Journal of the Pakistan Historical Society* 3, no. 2 (Apr 1955): 109; Wright, *The Coinage and Metrology*: 145, cat. II.

(١٥٩) نظامي، **سلاطين دهلي**: ١٤٨-١٤٩.

(١٦٠) المرجع السابق: ٨٢.

(١٦١) وهو أبو الفضل العباس المستعين بالله بن محمد المتوكل على الله بن أبي بكر المعتضد بالله بن سليمان المكتفي بالله الهاشمي العباسي.

(١٦٢) «ومما أنشأته حين كنتُ مقيمًا بالبلاد الشامية قبلَ استقراري مُنْشِئَ ديوانِ الإنشاء الشريف هذا العهد الذي هو نسيج وحده وخالصة عقده، أنشأته عن مولانا أمير المؤمنين المستعين بالله. وجُهز على يد قاصد صاحب الهند، وهو مولانا السلطان الملك العادل مُظفَّر شاه شمس الدنيا والدين، صاحب حضرة دهلي والفتوحات الهندية»، انظر: تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري (ابن حجة الحموي، ت ٨٣٧ هـ)، **كتاب قهوة الإنشاء**، تحقيق رودولف فيسيلي (بيروت: مطبعة درغام، ٢٠٠٥): ٤٤٨؛ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي (ت ٨٢١ هـ)، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، مج. ١٠ (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩١٦): ١٢٩.

(١٦٣) المرجعين السابقين: ٤٣٠-٤٣٤؛ ١٣١-١٣٢.

(١٦٤) لمزيد من التفاصيل عن العلاقات الدبلوماسية بين الدول والإمارات الإسلامية الهندية ومصر على عصر المماليك، انظر:
Stephan Conermann and Anna Kollatz, "Some Remarks on the Diplomatic Relations between Cairo, Delhi/Dawlatabad, and Ahmadabad during the Eight/Fourteenth and Ninth/Fifteenth Century", *Mamluk Cairo, a Crossroad for Embassies: Studies on Diplomacy and Diplomatics*, edited by Frédéric Bauden and Malika Dekkiche, *Islamic History and Civilization* 161 (Liden: Brill, [2019]): 621-636.

(١٦٥) Satish Ch. Misra, "Muzaffar Shah, The Founder of the Dynasty of the Sultans of Gujarat: An Appreciation", *Proceedings of the Indian History Congress* 23 (1960): 163-167; S. Bashir Hasan, "The Muzaffaris in Malwa and the Shift to Imperial Currency", *Proceedings of the Indian History Congress* 56 (1995): 338-352.

سوق السجاد، عن ليون جيروم.

The Memory of Arabs

Peer-reviewed Journal – Sixth Edition – 2022

ISSN 2735-4210

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية